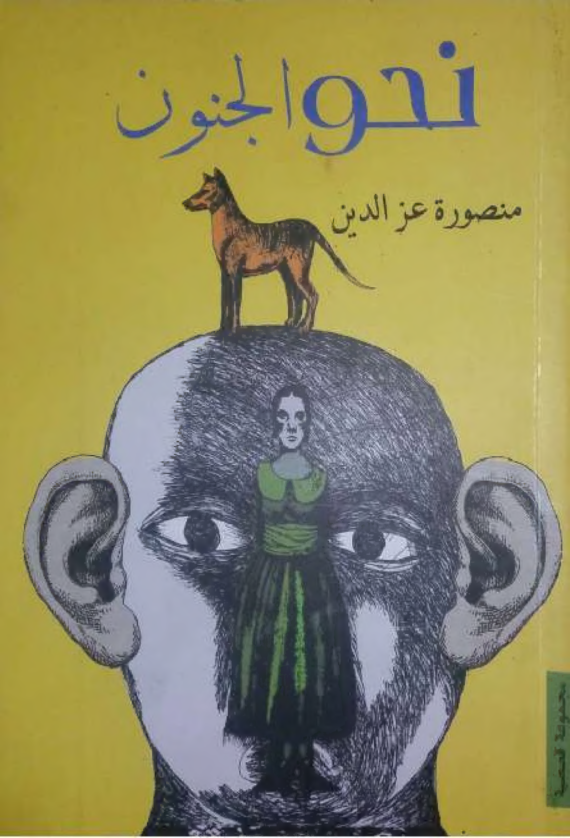

نحو الجنون
منصورة عز الدين



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm



نحو الجنون

منصورة عز الدين

نحو الجنون

مجموعة قصصية

دار ميريت
القاهرة ٢٠١٣

إهداء

إلى هالة صلاح الدين، لحظة ضعنا معاً

في مدينة تحترق!

مطر خفيف

"من الآن سيكون الأمر مختلفاً إن شئت، من الآن ستكون اثنين تحضر في ليالي المطر، ربما هكذا يحالفنا الحظ وإلا ستكون مجرد اثنين في ليالي المطر".

خوليو كورتاثر (لقاء في دائرة حمراء)

وجدت نفسها في مطار فخم لمدينة أجنبية، معها زميلان، كأنهم جميعاً في رحلة عمل. كان الإيقاع سريعاً والناس يسيرون كما لو أن حياتهم مرهونة بمدى اتساع خطوتهم. لغات مختلفة تسبقت على احتلال الفضاء المحيط، وشعور ثقيل بالتوتر انتابها بينما تتابع النظرات القلقة لزميليها. بدوا كأنما يتجاهلان وجودها عن عمد. كانا مرتبكين مثلها وإن جاهدا لمحاكاة الآخرين ممن يتحركون بسرعة واثقة. اختفيا فجأة عن مجال بصرها ولم يشعرها هذا بالخوف أو الاندهاش.

"ثمة وسيلة حتماً للذهاب إلى فيسبادن"! قالت بصوت خافت.

أعادت ترديد الاسم فبدا غريباً بدرجة كبيرة. "فيسبادن؟ لماذا عليّ أن أذهب إلى هناك؟" لم تجد جواباً مناسباً.

استرجعت ما تعرفه عن المدينة. لم تكن تعلم سوى أنها تقع في ألمانيا، وفي قصة تحبها لخوليو كورتاثر عن "خاكوبو"، الذي حاول شبح امرأة إنجليزية تشبه خلد الماء، أن يحذره من المصير المحتوم داخل المطعم البلقاني الخاوي في ليل فيسبادن الماطر، وانتهى الأمر بهما إلى أن يصيرا معاً شبحين ينتظران في ليالي المطر.

بفضل العزيز كورتاثر، تحولت المدينة، في مخيلتها، إلى بقعة خرافية مسكونة بأشباح تجاهد لإنقاذ ضحايا محتملين من براثن قتلة باردي الأعصاب، متخفين في مطعم صامت به شموع ينبعث منها ضوء شحيح، لذا كان مجرد التفكير في أن فيسبادن هي وجهتها التالية كفيلاً ببعث القشعريرة في جسدها، كأنها الضحية التالية الباحثة عن خاكوبو، وخلد الماء كي ينقذاها.

بفستان ملون قصير، وحذاء بكعب عالٍ مدبب، سارت فوق الأرضية اللامعة للمطار. خطواتها تدّعي الطمأنينة، وتخلّف رنيناً مزعجاً، بينما تفكر هي حائرةً في أقصر الطرق للوصول إلى فيسبادن.

انتبهت إلى أنها دخلت دهليزاً خرجت منه إلى مفترق مجموعة من الممرات المعدنية المتقاطعة. لم تعرف كيف وصلت إلى هذه النقطة رغم إتباعها علامات إرشادية كان من

المفترض أن تقودها إلى محطة القطارات المتصلة بالمطار لنقل الخارجين منه إلى المدن الراغبين في الذهاب إليها.
وحدها في غابة الممرات تلك. وقع خطواتها على الأرضية المعدنية بات لا يُحتمل، ودقات قلبها أخذت تتسارع، ولا من شخص آخر في هذا الفراغ.
ثم تلاشت محطة القطارات، ومعها المطار برواده المسرعين، وبقيت بمفردها تفكر في أنها محتجزة في اللامكان. واصلت سيرها بشكل عشوائي إلى أن فوجئت بنفسها في عمق مخزن عتيق، شبه معتم، ومزدحم بالخردة والروبابيكيا. وصلها صوت إطلاق نار ورائحة حريق، كأن العالم بأسره يتفحم ويحترق في الخارج.
أبصرت باباً حديدياً يكسوه الصدأ، دفعته فانفتح متأرجحاً. خرجت فإذا بها في مدينتها الأم وقد تحولت إلى فخ هائل يلوّنه دخان أبيض كثيف.
الشوارع اكتظّت برجال الشرطة. حواجز أمنية أغلقت المداخل، ومدرعات طوّقت كل شبر. على مقربة سارت خمسينية بدينة بملابس سوداء، تحمل كيساً به خضر وفاكهة وأرغفة خبز طازج، كأن الحياة على وتيرتها المعتادة. نظرت بتجهم إلى "كوردون" لجنود الأمن المركزي وهمهمت، قبل أن ترفع صوتها بغضب: "هيَّ حرب، ولاَّ كانت حرب؟!"
واصلت المرأة طريقها معتبرة أنها أدت حصتها من الاحتجاج، وتجاهلوها هم في ترقبهم الحذر خلف الدروع مدججين بأسلحتهم.

أصوات صراخ وضجيج كانت تأتي من بعيد، المدينة، كلها، أضحت ضباباً كريه الرائحة، وهي أشاحت بعيداً عن المرأة البدينة، وحرصت على عدم النظر في أعين الجنود والضباط .

ركضت فاتسع العالم وانهارت حوائط قديمة. كأنها بطلة في لعبة كمبيوتر ، راحت ترتقي من مرحلة للتي تليها، ومع كل خطوة للأعلى تزداد الخطورة. تجاوزت حاجزاً أمنياً فواجهها حاجز أصعب. تسللت من شارع جانبي إلى آخر أكثر جانبية بحثاً عن منفذ إلى قلب الأحداث، لكن زخة من رصاص كثيف أجبرتها على الاختباء في مدخل إحدى البنايات.

في هذه اللحظات لم تكن ترتدي فستانها الملون القصير ، ولا حذاءها ذا الكعب العالي والرنين المزعج، إنما سروال جينز ضيق، سترة جلدية بنية اللون، حذاء رياضي، وكوفية حول رقبتها. المطار والمتاهة المعدنية صارا جزءاً من واقع آخر مراوغ.

خطر ببالها اسم المدينة الألمانية فهزت رأسها بفتور فيما تتأمل المكان حولها. "لست في قصة كورتاثر ، بل في الحياة الواقعية" فكرت.

لم يكن ثمة شوارع خالية، ولا صمت مُخيم، ولا ليل ماطر ، بل رقعة تتعمد بالدم وتشتعل تحت قصف جنوني. صارت المدينة بأكملها دائرة حمراء تعج بأناس يهتفون بغضب، يحاصرها رجال عنيفون بأزياء رسمية داكنة.

لم تعد وحدها. هي الآن ضمن حشد كبير، نقطة في نهر، حبة رمل في صحراء شاسعة ومع هذا تشعر بفرديتها على نحو مكثف. يجتمع الحشد في الشوارع ويتفرق تحت ضغط الهجوم عليه، ثم يعاود الالتحام.

عادت من جديد، طفلة بعينين متسائلتين، وشعر بني طويل، تتسلق – حافية القدمين – تلاً رملياً ذات ظهيرة حارقة. تدوس الرمل، الملتهب بفعل الشمس، فيلسعها. ترفع إحدى قدميها بالتبادل مع الأخرى، للتخفيف من حدة اللسع بلا فائدة.

حقل شاسع من الرمال الساخنة كان عليها اجتيازه، بعدما فقدت حذاءها وهي تركض خوفاً من كلب ضال طاردها قليلاً ثم عاد أدراجه مكتفياً برؤيتها تخلّف الحذاء وراءها.

فوق التل، جلست لترتاح وذهنها خالٍ إلاّ من الألم المتسلل إليها من سخونة الرمال. لم يشغلها وقتذاك ماذا ستقول لأمها، ولا المدى الذي قطعته بعيداً عن بيتهم. تمددت وأغمضت عينيها مستحضرة النيل القريب وقت انحساره شتاءً. تخيلت نفسها نقطة في مائه أو حبة من رمال التل منسجمة مع محيطها ومتوحدة به.

تماهت مع لحظتها تلك ولم تعد تشعر بأي شيء آخر. وجدها أهلها، لاحقاً، بعد بحث مرهق، فاقدة الوعي ومصابة بضربة شمس. خافوا عليها، وظنوها في حالة خطرة، مع أنها حافظت على ابتسامة هادئة حتى وهي نائمة غير قادرة على الحراك.

بعد سنوات عديدة ها هي الآن، تراوغ الموت المتجول على مقربة منها. تسعل وتبكي، رغماً عنها، لكنها لا تكف عن الهتاف. طنين عجيب يرن في رأسها، كأن صدى هتافات العالم أجمع عبر تاريخه كله تحيط بها.

لم تعد تتذكر شيئاً عن خاكوبو أو خلد الماء أو ليل فيسبادن الماطر. تكثف الضباب الأبيض ليغطي الأفق. كان ثمة رائحة حريق تلتصق بجزيئات الهواء، عربات مجنونة تدهس العشرات، وشظايا مطاطية تخترق الأجساد.

خرجت من مدخل البناية إلى ممر ضيق بين شارعين، كادت تتعثر في فوارغ قنابل الغاز، تجاهلت وجع ساقها وخطت بتثاقل.

جرّت ساقها التي تحولت إلى عبء يثقل عليها، وواصلت سيرها. معظم المحال مغلقة، والبنايات أوصدت بواباتها بإحكام على قاطنيها. بعضهم شرع يتلصص بفضول قلق – من الشرفات أو عبر النوافذ الموارِبة – على ما يجري بالخارج. والبعض الآخر حاول المساعدة بإلقاء زجاجات مياه أو أي شيء يحسبه مفيداً لمن بالأسفل، أما الباقون فاعتصموا بالداخل كأنه رحم حنون يقيهم أهوالاً هائلة.

استمرت في الخطو فوق أرصفة متكسرة. عيناها تؤلمانها، وقدماها لا تكادان تحملانها. قابلتها جموع تعدو، التصقت بباب حديدي قريب، فاكتشفت أنه غير مغلق. دلفت إلى الداخل لتتعرف على المخزن المهجور بظلمته الخفيفة، بحثت بعينيها بائسة عن مساحة تستريح فيها. في النهاية تمددت على

ظهرها فوق الأرضية وأخذت تحدق في الظلام ساهمة قبل أن تغمض عينيها وتغرق في ليل ماطر لمدينة باردة.

جاءها أزيز الرصاص بالخارج كموسيقى تصويرية تؤطر العالم من حولها. رأت نفسها تسير تحت مطر خفيف في مدينة غريبة مع شخص لا تعرفه وإن بدا كـ"خاكوبو" كما تخيلته. كانت جميلة كما لم تكن من قبل، جميلة كفكرتها عن الجمال. مرت أمامها مشاهد متعددة من يومها الصاخب. شعرت بأن خطوات ذات رنين معدني تتبعهما، استدارت فلم تجد إلا الفراغ. الرصيف المبتل بماء المطر انعكست عليه إضاءة المصابيح فامتد براقاً.

مارس ٢٠١٢

القصة المشار إليها هي لقاء في دائرة حمراء" والتي استلهمها كورتاثر من لوحة بالعنوان نفسه (تعرف أيضاً بدائرة المجانين) للفنان الفنزويلي خاكوبو بورخيس.

ليل قوطي

لسبب ما كان عليه أن يسافر!

قال إن وجهته بعيدة، ونطق باسم مدينة لم أسمع بها من قبل، لكنّ حروف اسمها تُسلم إلى الانقباض والحيرة. بدت مسألة سفره كأمر قدري مقرر سلفاً. وفي الحال رأيت مدينته المبتغاة بشوارعها الشاحبة، رمادية اللون. لم يكن هناك ألوان سوى الرمادي الذي يغطي معظم المكان، وبجواره، على استحياء، الأسود والأبيض.

بشر كثيرون يسيرون في الشوارع الباهتة ببطء مرتدين مسوحاً داكنة ناظرين إلى نقطة ثابتة أمامهم. هدوء ثقيل يخيّم على كل شيء، وهو هناك يسير متفكراً بشرود، وأنا خارج المشهد أتلصص عليه بقلق، وأحدس بمجيء عملاق ذي معطف أسود وسحنة متجهمة وخطى ثقيلة. وفجأة يسود الهرج ويبدأ الناس في العدو هاربين.

أشعر أن الأرض تهتز على وقع خطوات ذي المعطف الأسود. أعرف أنه يظهر في الشوارع على فترات متقاربة، يخطو بقوة متكئا على عصاه الأبنوس، لا يكاد يرى شيئاً،

تتحرك نظرته العمياء بين الوجوه المقابلة، إلى أن يقابل وجهاً يُعيد إليه بصره، لحظتها يشير بسبابته إلى صاحب هذا الوجه فيختفي من الوجود، ويعود العملاق إلى عماه منتظراً ضحيته القادمة.

غير أنه لم يظهر هذه المرة رغم اهتزاز الأرض والفوضى التي سادت. ثمة فقط حالة ترقب لظهوره، وزلزلة خفيفة كالتي ترافقه أينما ذهب. بمضي دقائق أدرك من ركضوا أنهم خُدِعوا فعاودوا السير كما كانوا.

وحين نظرتُ إلى من يسير بشرود، رأيته لا يزال على خطوه البطيء. دققتُ النظر بحثاً عن نظرة الثعلب الماكرة التي تميزه، فلم أصل إليها. عدّل من وضع فولار أسود حول رقبته، ورفع رأسه نحو السماء كمن فوجئ بقطرات مطر في غير موعدها، ثم عاد إلى شروده من جديد.

منذ وصوله، وهو يواصل اكتشاف المدينة، يتحرك في شوارعها بلا توقف. كتب لي بحماسة أنها مدينة العالم.. "هنا كل اللغات الممكنة. لا جنسيات، ولا فوارق. لستَ حتى في حاجة إلى الكلام لتوصيل أفكارك"!! ثم تباعدت رسائله، وما وصلني منها لمدة عام كان لا يحوي أي شيء عن مدينته التي تبدو كأنها خارج العالم.

لكنه، فيما بعد، عاود الكتابة عن المدينة من جديد: رسائل مطولة لا وجود فيها لأي مسحة شخصية: لا معلومات عنه، ولا سؤال عني، فقط مقاطع مسهبة عن مدينة لا تشبه المدن

التي أعرفها، مكتوبة باعتناء أسلوبي مبالغ فيه، وخط منمّق، وحروف صغيرة مرسومة بدقة.

كتب أنها كانت تسمى مدينة الشمس الدائمة. لم تكن شمسها تغيب طالما بقي أحد سكانها مستيقظاً. تغرب فقط حين ينام آخر واحد منهم، وتشرق قبل استيقاظ أولهم. حُرموا جميعاً من الليل. لم يعرفوا بوجوده أصلاً.

لم يكن ثمة عملاق، ولا شوارع شاحبة، ولا بشر راكضين. إنما نهار دائم، وشمس متوهجة تكاد لا تغيب. شوارع المدينة بالغة التشابه كأنها تكرارات أبدية للشارع نفسه. عمارتها قوطية تبعث على الرهبة بأقواس بارزة وأبراج مستدقة، وزخارف ونقوش متماثلة لوجوه صارخة بعيون متسعة بفعل الفزع. ميادينها مربعة، وحدائقها أشبه بغابات ممتدة على أطراف المدينة.

هي نفسها الغابات التي جاء منها العملاق ذو العينين المطفأتين، لكنه وقتها، لم يكن أعمى، وكانت نظرته محملة بالإغواء لا التجهم. اعتاد أن يتحرك بخفة متكلماً عن شيء خارق الجمال يدعى الليل قرأ عنه في الكتب الكثيرة التي تملأ كوخه في الغابة، وحكى له الصيادون في البحيرة المجاورة للكوخ عنه.

قالوا إنهم رأوه في مدن أخرى وقت أن كانوا يعملون على سفن الصيد الكبيرة في البحار البعيدة. يغمض عينيه المغويتين ويتكلم عن الليل كما لو كان رآه. سواد عظيم لا تقوى آلاف المصابيح على تبديده، فقط تموه عليه قليلاً مانحة إياه مزيداً

من الجمال".. يقول وهو يمرر لسانه على شفته السفلى متذوقاً فكرة الليل.

غادر مدينة الشمس بحثاً عن الليل. سار مئات الأميال، مرت أيام وأسابيع ثم أعوام. سأل كل من قابلوه عنه، وصفه لهم بكلمات مبتورة ومرتبكة.

مع مرور الوقت بدأ ييأس، لكنه، بمكابرة، واصل المسير من دون أن يلتفت وراءه لمرة واحدة. سار لمدة لا يعلم مداها، يأكل من ثمار الأشجار، ويشرب من مياه الينابيع، حتى وجد نفسه في طريق العودة إلى مدينته.

عرفها من الأبراج المستدقة الشاهقة، والقباب الكريستالية التي تنعكس عليها أشعة الشمس فتخلق شموساً هائلة الإضاءة. لم يقدر على إبعاد عينيه عن البريق الهائل المنعكس من قباب مدينته. مشى وعيناه معلقتان به. ثم بدأ يشعر بالنور ينسحب من عينيه. كلما توغل في المسير مقترباً، كلما خفت بصره. لم يدرك في البداية كنه ما يواجهه، ظن أن العالم من حوله تخفت إضاءته، وتتلاشى على مهل. عندما غرق في الظلام تماماً أدرك أنه وصل إلى مبتغاه. قابل الليل وجهاً لوجه. فرح لأنه سوف يصطحب ليله الخاص عائداً به إلى مدينة الشمس.

كانت المسافة المتبقية، على صغرها، هي الأكثر صعوبة في رحلته الطويلة. تخبّط في خطواته، دار حول أسوار المدينة أكثر من مرة، قبل أن يدخلها في النهاية ليُفاجأ به أهلها وقد أصبح هذا العملاق المتجهم ذا الملابس الداكنة والخطوات

الثقيلة. وليكتشفوا أن مدينتهم مع عودته أضحت أخرى شاحبة الإضاءة كأنها مترددة بين نهار غادر بلا رجعة وليل يأبى الوصول.

في رسالة تالية بدا صديقي كأنما نسي أمر رسالته السابقة، إذ كرر ما جاء فيها بتعديلات طفيفة. وواصل حاكياً أن العملاق ذا الملابس السوداء والنظرة التي أصبحت مطفأة اعتكف في كوخه بالغابة لمدة طويلة لم ينطق خلالها بكلمة واحدة. ينصت فقط لحفيف الأشجار وزقزقات العصافير وصوت الرياح حين تهب. وعندما يمل من وحدته وصمته، يخرج إلى الشوارع بخطواته الثقيلة التي تهز الأرض تحتها.. متوكئاً على عصاه الأبنوس، ومحتمياً بتجهمه وعماه وخوف الآخرين، ومسلحاً بخبرته في الإنصات للاشيء، تتحرك نظرته المطفأة بين الوجوه المقابلة، حتى يصادف وجهاً يعيد إليه بصره. يشير إليه العملاق بسبابته فيختفي من الوجود. يحاول العملاق الإلمام بكل تفاصيل العالم الجديد من حوله، قبل أن يعود إلى عماه من جديد، لكنه يفشل فيرجع يائساً إلى كوخه وانتظاره.

عششت المدينة بأجوائها القوطية في عقلي. طوال الوقت أعيش مع شوارعها المتماثلة، ومياديها المربعة، والزخارف الدقيقة لوجوه صارخة على واجهات مبانيها. أحلم بها، وأفيق لأجد نفسي أسير في دروبها. أصحو فجراً مثقلة بما رأيت، ويتحرك العملاق في مخيلتي، وقد تحولت نظرته من التجهم إلى الإغواء من جديد كأنما يدعوني إلى اللحاق به.

أقرأ رسائل صديقي وأعيد قراءتها مجدداً، أتأمل الخط المنمّق والحروف المرسومة بإتقان، وأفكر كم تغير. لم يعد يشبه ذلك الشخص الذي كانه في السابق. تبدو لي المدينة كمكان مارس عليه سحراً وتنيناً غامضاً، دفعه للكتابة بلا توقف ودونما مشاعر وبلا غرض. أرسل له رسائل متساءلة عن أحواله، وماذا يفعل، وهل سيعود أم لا؟ فلا يرد على أسئلتي بكلمة واحدة، بل يظل يكتب عن المدينة التي سحرته وحولته إلى مجرد عين تلتقط التفاصيل أمامها، ويد تدون ما تراه بلا كلل.

قلت سأحذو حذوه. وبدلاً من رسائلي المفعمة بأسئلة يتجاوزها كأنما لم تكن، بدأت أكتب له بدوري عن مدينتي. مدينة مخترعة واقعة بين جبال مكسوة بنباتات وأشجار زاهية الخضرة، وبحر هائج باستمرار يغلّف الجو برائحة اليود، وتلفظ أمواجه طبقات كثيفة من الملح على الشاطئ كل صباح. بيوت المدينة مبنية بكاملها على جرف يمتد بين الجبال والبحر الهائج، كأنها في وضع سقوط أبدي. وسكانها يقاومون الجاذبية طوال الوقت، يسيرون ببطء صاعدين أو هابطين محاذرين الوقوع من هذا العلو إلى جوف البحر المتلاطمة أمواجه بأصوات صاخبة مجلجلة.

في البداية كنت أرسل له رسالة مقابل كل واحدة تصلني منه، لا أعلق على ما يكتبه ولا أسأل عنه، وهو، كعادته، يبدو كأنما لا يقرأ رسائلي من الأصل. ثم بدأت أكتب بلا توقف، رسائل طويلة مكتوبة باهتمام ومشغولة بالتفاصيل، أرسل

بعضها وأتغاضى عن إرسال معظمها. إلى أن كففت عن مراسلته تماماً، منشغلة فقط بتسويد مئات الرسائل التي أكدسها هنا وهناك في أرجاء سكني.

أكتب متجاهلة وجع أصابعي، وألم عمودي الفقري من طول الانكفاء، خالطةً بين مدينتي ومدينته. بين الميادين المربعة والعمارة القوطية بالوجوه الصارخة فوق مبانيها، وبين الجرف الخطر والبيوت المقاومة سقوطاً أبدياً. بين عملاقه ذي المعطف الأسود والنظرة العمياء، وبين من أراهم حين أفتح نافذتي بسيرهم الحذر صعوداً وهبوطاً.

أعيد قراءة رسائلي الملقاة حولي بفوضى، أنظر ملياً إلى خطي المنمّق، وحروفي الصغيرة المرسومة بدقة، واعتنائي المبالغ فيه بالأسلوب، وأفكر كم تغيرت. أخرج من بيتي المحاط بنباتات وأشجار كثيفة متشابكة، لأفاجأ بمدينتي بشوارعها الشاحبة رمادية اللون وميادينها المربعة والهدوء الثقيل المخيم عليها. أغمض عينيّ مستسلمة للظلام، فينفتح المشهد أمامي ببطء كلقطة "زووم إن" في فيلم سينمائي، لأجد أمامي بشراً كثيرين يسيرون ببطء ناظرين إلى نقطة ثابتة أمامهم، وأراه يسير متفكراً بشرود، وأسمع وقع صاخب لخطوات ثقيلة كأنما تصدر عني.

ديسمبر ٢٠١٠

مارين

إلى مارين يونكلاوس.. هناك في دوسلدورف

أشاحت مارين بوجهها بعيداً مني، واستدارت مغادرةً. كدت أتشبث بمعطفها الرمادي الطويل، كطفلة تتشبث برداء أمها. تغادرني مارين ببطء، وعيوني تتعلق بها أكثر. وصلتُ إلى مدينتها الغريبة اليوم فقط، ومن المفترض أنها الشخص المكلف باستقبالي وتوصيلي إلى الفندق المخصص لإقامتي، غير أنها تطلعت في وجهي للحظات ثم ابتعدت من دون أن تنطق بكلمة واحدة. كنت في محطة قطارات فخمة، نظيفة، ومزدحمة، والناس من حولي يتحادثون بلغة لا أفهمها ويتحركون بسرعة. لم أجد بداً من جر حقيبتي الصغيرة خلفي على الأرضية المصقولة لمحطة القطار، والسير في الاتجاه نفسه الذي سارت فيه مارين منذ قليل. أخذتُ أتبعها بوجل، وجسدها يتقافز مبتعداً تائهاً بين الجموع. أكاد أركض، بينما تحافظ هي على خطوها البطيء، وعلى رغم هذا لا تتضاءل المسافة بيننا.

عبرنا شوارع، ميادين، حدائق، ومقابر، محافظتين على المسافة نفسها، والجموع ذاتها تكاد تحجب جسد مارين الصبياني النحيل عن ناظريّ. بقي خوفي وقلقي وإن كنت نسيت السبب الداعي لهما، أصبحت ملاحقة مارين والحرص على ألاّ تغيب عني هما الهدف الذي ينحصر فيه وجودي.

تلكأتْ مارين قليلاً ثم اتجهتْ نحو باب خشبي ضخم لبناية عتيقة على يمين الشارع فتركتُ حقيبتي وعدوتُ بأقصى ما أستطيع كي ألحق بها. دفعت الباب، وولجتْ إلى الداخل المزدحم بهدوء، وأنا في إثرها. فوجئتُ بالبار المعبّق برائحة التبغ والكحول. موسيقى غامضة انبعثت بقوة، ورجال ونساء سكارى، بعضهم يقف بين الطاولات، والبعض الآخر جالس إليها، يغنون بأصوات متنافرة وإيقاع بليد، ويضحكون ثم يواصلون الغناء. كان المكان منقسماً لجزأين بينهما ممر طويل مشت فيه مارين كأنها لا تسمع الغناء المزعج ولا الموسيقى الغامضة. سرتُ خلفها محاولةً تحاشي الأيدي التي تمتد من الجانبين لجذبي كي انضم للسكارى المغنين، هززتُ رأسي لمن يرفعون كؤوسهم كأنما يحيونني، وأنا أتبع مارين وقد شعرتُ أن الممر طال أكثر مما ينبغي وأن الإضاءة تخفت كلما تقدمنا إلى الداخل.

كنتُ كمن يسير بصعوبة عبر أكوام من القطن الأبيض، غير أن مارين، في بعدها عني وعدم انتباهها لي، كانت تتحرك بخفة على رغم سيرها بالبطء نفسه كأنها تقيس خطوتها

بميزان حساس، يساعدها في جعل كل خطوة نسخة متطابقة من التي تسبقها من دون أدنى انحراف.

فجأة أسلمنا الممر الطويل خافت الإضاءة إلى باب أخرجنا للشارع من جديد. كان شارعاً مختلفاً عن كل الشوارع والطرق التي سرنا فيها، كأننا انتقلنا إلى مدينة أخرى أو نسخة أبهت من المدينة الأولى. ثمة ضباب خفيف يخيّم على كل شيء حولنا. الجموع ذاتها عادت تحجب مارين عني، فحاولتُ الصراخ منادية باسمها، لكنّ صوتي لم يطاوعني، أخذ اسمها يتردد في عقلي دون أن يخرج صوتي. اكتشفت عدم قدرتي على النطق، وانتبهت لأول مرةٍ إلى أنه منذ خروجنا من البار المعتّق بروائح التبغ والكحول، لا وجود لأي صوت على الإطلاق: لا وقع لخطانا، لا زقزقة لأي طيور محتملة، ولا وشيش يحمله الهواء. صمت راسخ سيطر على الفضاء الذي نتحرك فيه.

ثم بدأت رائحة خفيفة تتسلل إلى الهواء، قبل أن تتزايد كثافتها تدريجياً، رائحة هجين من عبير الصندل وزهر الليمون والبرتقال والياسمين ممزوجة بروائح أخرى لم أستطع تحديدها، وإن كانت أورثتني شعوراً مبهماً بضيق ضاعف منه ازدياد الضباب لدرجة أخفت كل الأشياء عني باستثناء طيف مارين المستمر في خطوه الأبدي. خطر ببالي أن أتوقف عن تتبعها، لكني لم أجرؤ على ذلك. سرت خلفها كالمنومة. انقشع الضباب بشكل مفاجئ، وإن ظلت الرائحة الهجينة. ومرة أخرى عبرنا شوارع وميادين، حدائق ومقابر محافظتين على المسافة

نفسها بيننا. ثابرت مارين على إيقاعها ذاته وأنا خلفها أرقبها ولا أرى سواها. بحركة هادئة طوّحت رأسها في الهواء مستديرة نحوي من دون أن تنظر فعلياً إليّ، ثم عادت لخطوها العابث غير المبالي بي. لم تستغرق التفاتتها إلا ثواني معدودات لكنها كانت كافية كي أبصر في وجه مارين الشاحب قلقي، وفي تعبها إرهاقي وخوفي.

مارس ٢٠١٠

ست شمعات

البيت مثلما وصفه لي بالضبط!

بناء طيني محاط بسياج من أعواد القش تظلله شجرة توت ضخمة وتحيط به أشجار كافور ويقبع منعزلاً بعيداً من العمران. وقفتُ أتأمل بابه الخشب العتيق، استغرقتني الكف المطبوعة عليه... وضعت كفي عليها، فلم تتطابق معها. بصعوبة، انتشلت نفسي وطرقتُ الباب.

طرقة واحدة على استحياء، تلتها طرقات أخرى بوقع أشد، حتى فتحت لي. كانت كما تخيلتها تماماً: سمراء، نحيلة، مطفأة النظرة، تربط رأسها بعصابة سوداء، وترتدي جلباباً فضفاضاً باللون نفسه، لم أعرف ما ينبغي عليّ قوله ولا كيفية تبرير زيارتي المفاجئة لها. لحسن الحظ وفرت عليّ أي كلام.

« استنيتك كتير ». قالت.

• إزاي عرفتي إني جاية؟

– هو قال إنك أكيد هتيجي.

• ردت بتجهم، ثم أنزلت لمبة الكيروسين المعلقة بمسمار إلى الحائط، أطفأتها بنفخة من فمها، وقالت:

- نور ربنا كفاية.

نظرتُ إلى السيجارة التي أشعلتُها، وأشاحتْ بوجهها بعيداً... تشاغلتْ بالعبث في ثنيات ثوبها الأسود الفضفاض، وإن ظلتْ تتابعني خلسة، وترمق شعري الأسود المتناثر بلا انتظام فوق كتفي، وملابسي السوداء القصيرة، ونهمي للسيجارة التي امتصها.

سألتها عن الغرفة، فأشارتْ إليها. فتحتُ الباب فباغتتني الحيطان العارية، ورائحة بخور نفاذة. أغلقتُ الباب خلفي، خلعتُ حذائي، وخطوتُ حافية على الحصيرة الخوص النظيفة.

كانتْ الغرفة بلا نوافذ وخالية إلا من سرير خشب، ومنضدة صغيرة فوقها شمعدان فضي به ست شمعات وبجواره بعض الكتب القديمة ذات الأوراق المصفرة. غبار أبيض كان يغطي كل شيء، حاولت مسح بعضه بيدي، فلم أفلح، توقفت عندما تذكرت تحذيراته لي من أن أحاول تعديل أي شيء في الغرفة، أو أحكي لأي شخص عما مررت به فيها. شددَ علي أيضاً ألا أغادرها إلا بعد مرور يوم كامل على دخولي لها، وألا أنطق بأي كلمة وأنا فيها. «تجربة ستؤثر فيك كثيراً» قال بهدوء وثقة.

بدأت أشعر بالتوتر وبعض الندم لمجيئي إلى هنا، فأشعلت سيجارة ثانية علها تمدني ببعض الهدوء، وتمددتُ فوق السرير.

دسستُ وجهي في الوسادة، هرباً من رائحة البخور فوجدتها صارت أكثر تركيزاً. أبعدت وجهي، وجلست مستندة

بظهري إلى قائمة السرير. شعرت كأنني أسمع ضحكاته الصاخبة تتناثر على أرضية الغرفة، شحذت قواي محاولة تجميعها وصبها في أذني لتتسلل إلى المخ مباشرةً. شعرتُ بحضوره معي، وبلمساته، وشممتُ رائحة التبغ الممزوجة بأنفاسه الحارة. استحضرتُ نبرة صوته الهادئة وكلماته التي ينطقها متمهلاً كأنه يبخل بها على من يحادثه.اندهشت من حضوره الكثيف في المكان.

فجأة بدأت أسمع أصواتاً متداخلة لأشخاص أعرفهم الآن أو عرفتهم في الماضي، كانوا كأنما يتجادلون بعنف وعصبية، ويتردد اسمي في حديثهم من وقت لآخر. كنت عاجزة عن فهم ما يقولون، أضحت الكلمات مجرد أصوات منطوقة بلا معنى أو دلالة محددة. خفتت أصواتهم تدريجياً، من دون أن تصل للصمت التام. بقي وشيش خفيف يحف المكان ويدل على وجودهم غير المرئي.

وحده اسمي كنت أسمعه بوضوح حين يذكرونه. مع حلول المساء، أنيرت الشمعات الست كأنما من تلقاء نفسها. لم أشعر بالجوع أو العطش، كما لم أعد في حاجة للتدخين. أغمضت عينيّ متجاهلة الهمهمات الخافتة التي لم تنقطع. مرت كل تفاصيل حياتي أمامي كشريط سينمائي. كانت ذاكرتي مشحوذة، كأنها احتفظت بأدق التفاصيل التي عشتها، مع التركيز على لحظات الإخفاق أو الخطأ التي أخذت تُستعاد في ذهني المرة تلو الأخرى، وعلى عكس توقعي لم تخلّف بداخلي

أي ألم أو ندم. كنت كأنني واقعة تحت تأثير مخدر ما جعل ردود أفعالي بطيئة، وأزال أي توتر أو خوف، أو عاطفة.

هادئة تماماً، خلعت ملابسي وتمددتُ شبه عارية فوق الفراش الخشن، أراقب حياتي، تتكرر أمامي ببطء وبلا نهاية. غفوت فجأة لفترة لا أعلم مداها، في إغفاءتي كنت كأنما أسمع صوته أيضاً، وحين أفقت وجدتني مرتدية ملابسي بالكامل، وجسدي يؤلمني في أكثر من موضع، انتبهت إلى أن الغرفة جد مختلفة عن السابق، أبصرت نافذة تتوسط الحائط عن يميني، ولم يكن هناك أثر للشمعدان بشموعه الست، ولا للكتب القديمة بجواره، المنضدة الخشبية نفسها لم تكن موجودة. خمنت أن هناك من نقلني إلى غرفة أخرى. اعتدلت في جلستي وأنا أتساءل عن مصدر الألم الخافت في جسدي. قمت ببطء، ارتديت حذائي، وخرجت بتثاقل.

كان البيت يتباعد عني. ثمة مطر خفيف، وظلام يخطو متردداً. أحكمتُ وضع شالي الأسود على كتفي، مددتُ كفي أمامي فسقطت عليها بعض قطرات المطر. ضممتُ قبضتي، وخطوتُ أولى خطواتي في طريق العودة.

ابريل ٢٠١٠

نحو الجنون

كنت أراقب جارتي وهي تخطو بدأب نحو الجنون، كانت تتجه إليه بالبساطة نفسها التي تضع بها أكياس القمامة أمام باب شقتها كل صباح، بالإتقان نفسه الذي تطهو به أصناف الطعام التي تغمرني روائحها الشهية كلما مررت بشقتها الواقعة أسفل شقتي مباشرة.

حين انتقلتُ للسكن في البناية لم ألحظ أي شيء غريب أو حتى غير اعتيادي فيما يخصها، امرأة في أوائل الثلاثينيات.. ربة بيت نشيطة وأم وحيدة تبالغ قليلاً في رعاية أطفالها الثلاثة الذين يبلغ أكبرهم تسعة أعوام كما أخبرتني.

تبتسم في وجهي كلما قابلتني [illegible] وأنا متجهة لعملي أو عائدة منه، صوتها [illegible]

قصر قامتها وصغر وجهها، ورغم ارتدائها للعباءة والحجاب الذي يصل إلى ما تحت صدرها كانت لا تحرمني من تعليق مجامل على تسريحة شعري أو فستاني القصير أو حتى رائحة عطري. "تحفة" تقول وعيناها تلمعان بطريقة شخص متشوق للتواصل مع الآخرين.

عادة ما كنت أتقبل تعليقاتها بنوع من التحفظ الذي يشعرني بالذنب بعدها، حرصت منذ البداية على أن أضع مسافة ملائمة بيني وبين جيراني، فنمط حياتي لا يسمح لي بتضييع أي وقت في محاولة التواصل مع أناس مختلفين كلية عني، أنا بالنسبة لهم امرأة غريبة الأطوار تتعامل مع بيتها كمجرد مكان للنوم، إذ كنت أغادر في الواحدة ظهراً ولا أعود إلا مع اقتراب منتصف الليل.

لم يكن مألوفا بالنسبة لهم أن تعيش امرأة تعدت الثلاثين مثلي بمفردها، لا زوج، لا أولاد، ولا أقارب. لكن هذه المرأة بدت كأنما ترغب في أن تتغاضى عن كل هذه المآخذ التي أخذها الجيران عليّ.

كنت أرى في عينيها نوعاً من التوق للتواصل معي، عزوتُ ذلك للاختلاف بيننا، فأنا بالنسبة لها أشبه ذلك الغريب الذي نقابله في سفرة بعيدة ونفضي له بأدق أسرارنا لأننا ندرك أننا لن نراه مرة أخرى.

قد أكون جنحت كعادتي إلى المبالغة في تفسير نظراتها لي، لكنني كنت واثقة من أن هذه المرأة القصيرة ذات الملامح المنمنمة لديها ما تريد إخباري به.

عندما أسمع صراخها الهستيري وهي تعنف أطفالها بشدة، ثم صوت نشيجها الذي يتلو وصلة التعنيف اليومية، كنت أصاب بالحيرة، إذ كيف للمرأة الهادئة، ضئيلة الجسم، دقيقة الملامح، التي اصطدم بها من وقت لآخر على درَج البناية أن تتحول لهذه المخلوقة الهستيرية التي تحوّل صباحاتي إلى

جحيم بشجارها الدائم مع أولادها، وتضطرني للاستيقاظ مبكراً حتى في أيام العطل؟

لا أتذكر الآن متى بدأ صوتها المرتفع ينطلق لتصدح به وهي تقف على بسطة الدَرَج أمام شقتها منادية زوجة البواب كي تشتري لها ما تريده من الخارج رغم وجود جهاز الإنتركوم الذي يمكنها من طلب ما تريده من المرأة بصوت هادئ وهي جالسة في مكانها.

كنتُ أتعاطف مع امرأة البواب وأنا أسمع جارتي تسبها متهمة إياها بتجاهلها، وأشفق على أطفال جارتي المشاغبين - الذين لم أرهم أبداً- حين تعاقبهم بأن تحبسهم في إحدى الغرف وتغلق الباب عليهم، من دون أن تكترث بتوسلاتهم أو بالجلبة التي يسببونها بطرقهم المتواصل على الباب.

بدأت أتخيل عقلها كقطعة أرض "شراقي" تشققت بفعل العطش ثم فتحت ذراعيها للماء وقد أخذ يجري مغطيا إياها، الماء هو الجنون الذي يزحف ليغطي عقلها ويواريه في الخلفية.

لم استطع أبداً أن أتخلص من صورة الأرض العطشى والماء يفيض عليها. كلما اصطدمت بالمرأة على الدرج أو سمعت صوتها الذي أصبح مبحوحاً بفعل الصراخ المتواصل لأتفه الأسباب، أرى شقوقا تبتلع الماء.

ذات صباح فوجئت بها تطرق بابي، كانت مرتبكة وعيناها حمراوان كأنما قضت الليل كله في البكاء، أفسحت لها الطريق فدخلت مباشرة إلى الصالون كأنها تحفظ شقتي عن ظهر قلب.

لم أكن قد أفقت تماماً من أثر النوم، فتبعتها بكسل وأنا أردد كلمات الترحيب المعتادة.

عندما جلست في مواجهتها لاحظت أن نظراتها زائغة، وجسدها يرتعش بعض الشيء. أخذت تنظر حولها بتوتر للتأكد من أننا وحدنا. ثم انتفضت فجأة متجهة لجهاز التلفاز، وغطته بمفرش منضدة الصالون. ونظرت للسقف والجدران بتمعن، ثم اقتربت لتجلس بجواري على الكنبة وهي تهمس:

– معلش. الاحتياط واجب.

لم أعلق واكتفيت بابتسامة مشجعة، فبدأت تحكي وهي ترجوني أن أصدقها وإلا أتهمها بالجنون كالآخرين. قالت إنها لم تعد تتحمل الحياة على هذا النحو، وأن طليقها يراقبها ويرصد كل حركاتها حتى في غرفة نومها لدرجة تضطر معها للنوم وهي مرتدية العباءة والحجاب.

طلبت مني أن أنزل إلى شقتها لرؤية الكاميرات المزروعة في أركانها فتبعتها متضررة، حين وصلنا لباب شقتها وضعت سبابتها أمام فمها طالبة مني ألا أتكلم.

دخلت على أطراف أصابعها وأنا خلفها. بدا بيتها كأنه نسخة منقولة عن بيتي بكل تفاصيله، الأثاث، وألوان الستائر وحتى اللوحات المعلقة على الحوائط. تلفازها كان مغطى هو الآخر. اندهشت وشعرت ببعض الخوف النابع من عدم الفهم.

نظرت حولي بحثا عن أولادها إلا أنني لم أعثر لهم على أي أثر. دخلت معها كل الغرف فأخذت تشير إلى ما تظنه كاميرات سرية وأجهزة تنصت. كنت مشغولة فقط بالبحث عن

أي أثر للأولاد الثلاثة المزعجين. تركتني لدقائق للذهاب إلى الحمام، فتسللتُ لغرفة نومها، كان هناك جهاز تسجيل كبير وبجواره عدة شرائط كاسيت، من دون أن أفكر فتحت بابه وأخذت الشريط الموجود بداخله وأخفيته في ملابسي واتجهت للباب.

في شقتي رحت استمع لأصوات الأطفال المنطلقة من الكاسيت، مرة يطرقون على باب ما وهم يتوسلون من أجل إخراجهم، وأخرى وهم يلعبون بأصوات صاخبة تقطعها فترات صمت تام.

كانت الأصوات نفسها التي اعتدت سماعها منبعثة من شقة جارتي، لكن من دون صوتها هي، يبدو أنها كانت تضيفه على الأصوات المسجلة.

لم أجد أطفالها الثلاثة حين دخلت شقتها لأنهم ببساطة غير موجودين من الأساس، تذكرت أني لم أرهم أبداً، وكل معلوماتي عنهم كانت مستقاة من الكلمات القليلة التي كنت أتبادلها مع جارتي حين ألتقيها على بسطة السلم. كونت عنها فكرة الأم التي تبالغ في الاهتمام بأطفالها لحرصها على الإشارة إليهم في ثنايا كل جملة توجهها لي، ولروائح أطعمتها الشهية التي ترشح أم حريصة على تزويد أبنائها بتغذية سليمة، ولملابس الأطفال التي اعتادت أن تنشرها كل يوم تقريباً على حبل غسيلها.

شعرت بنوع من التعاطف معها وقررت أن أزورها في اليوم التالي متعللة بأي حجة، رغم معرفتي بأنها نظراً للبارانويا

التي بدت واضحة عليها ونظراً لخروجي المفاجئ من شقتها ربما تظنني جاسوسة لطليقها عليها.

في الصباح وجدت نفسي واقفة أمام الشقة الواقعة أسفل شقتي. طرقت الباب ثلاث طرقات خفيفة، ففتحت لي امرأة في حوالي الخمسين ترتدي ملابس بيت قطنية وتبتسم ابتسامة مرحبة. سألتها عن..... عن ..... اكتشفت أنني لا أعلم اسم جارتي فوصفتها لها وقلت إنها تسكن هذه الشقة.

أخبرتني المرأة الخمسينية أنها تسكن هنا مع ابنتها الجامعية منذ عشر سنوات، ولا تعرف عمّن أتحدث. بدا عليها نفاد الصبر وهي ترمقني بنظرة متشككة. فاعتذرت وأنا أغادرها محرجة.

***

كنت أتابع المرأة غريبة الأطوار التي تسكن في الشقة التي تعلو شقتي، دون أن اتكلم معها. اعتدت أن أقابلها من وقت لآخر على درج البناية، كانت دائما في عجلة من أمرها، تهبط درجات السلم أو تصعدها عدواً كأن هناك من يطاردها.

امرأة في الثلاثينات تقريباً بجسد ضئيل وملامح منمنمة، تترك شعرها الطويل منسدلاً على كتفيها، وترتدي ملابس قصيرة وأحذية ذات كعب عالٍ بدرجة ملحوظة.

حرصت على تجنبها منذ البداية إذ بدت لي غير متزنة بعض الشيء سمعتها أكثر من مرة تحادث نفسها وهي تصعد أو تهبط، كنت فقط أتبادل معها تحية الصباح أو المساء حين

أقابلها على الدرج فترد دون أن تنظر إليّ ثم تواصل همهماتها غير المفهومة.

كان من الممكن أن تظل كغيرها من الجيران بالنسبة لي، فعدم اتزانها يخصها وحدها طالما بقيت مسالمة وغير عدوانية، غير أنني بدأت أتضايق من الجلبة التي تصدر بشكل دائم عن شقتها رغم معرفتي بأنها تسكن وحدها. كانت هناك ضوضاء ناجمة عن بكاء أطفال صغار وشجارهم مع بعضهم البعض. وصوت امرأة تبدو كما لو كانت أمهم تعنفهم وتصرخ فيهم بشكل دائم.

حين شكوت لحارس البناية وطلبت منه أن يبلغها بانزعاج الجيران من الأصوات المرتفعة الصادرة من عندها ليل نهار، فوجئت به يخبرني أن جارتي غير المتزنة نفسها اشتكت من تلك الضجة مؤكدة له أنها تصدر من شقتي أنا!!

ذات يوم كنت على وشك الصعود إليها كي أبدي لها انزعاجي وعدم استطاعتي النوم بسبب صخبها، إلا أنني وجدتها هي من يطرق بابي لتسألني عن امرأة ضئيلة الجسم ترتدي العباءة والحجاب مدعية أنها تسكن شقتي.

أصبت بالذهول، وأنا أراها تلفق هذه الادعاءات السمجة؛ فالمرأة ذات العباءة والحجاب تشبهها هي تمام الشبه لدرجة تصورت معها حين رأيتها للمرأة الأولى أنها توأمها وتسكن معها، إلا أن البواب أخبرني أنه لم ير الاثنتين معاً ولو لمرة واحدة، وأنه يعتقد أنهما الشخصية نفسها.

تمالكتُ أعصابي واكتفيتُ بقول إني أسكن هنا مع ابنتي وحدنا منذ عشر سنوات ولا نعلم شيئاً عن المرأة التي تسأل عنها. بدا اندهاشها حقيقياً وهي تسمع مني ذلك. كانت على وشك أن توجه لي أسئلة أخرى، فأمسكتُ بالباب كأني على وشك إغلاقه وأنا ابتسم لها بود مصطنع فغادرتْ محرجة.

***

لا أعرف على وجه اليقين من أوصلني إلى هذا المكان القبيح، لكني أعتقد أن المهووسة ذات العباءة السوداء والملامح الدقيقة لها علاقة بالأمر، أو قد تكون المرأة الخمسينية التي وجدتها تسكن في شقتها بدلاً منها.

أريد العودة إلى بيتي وعملي من جديد. لن ازعج أحداً مرة أخرى رغم تيقني من انني لم ازعج اي أحد في المرة الأولى. لماذا لم يصدقوني حين أخبرتهم أن المرأة الهستيرية التي تسكن أسفل شقتي هي من يزعجهم؟

وجود عباءتها وملابس أطفالها في دولاب ملابسي لا يثبت أي شيء. يجب أن يصدقوني. يمكنهم أن يتصلوا بطليقها الذي انتزع أطفالها منها بحكم محكمة كي يؤكد لهم جنونها هي لا أنا.

مارس ٢٠٠٩

الصعود لأعلى

حين نزلتِ إلى الشارع في ذلك المساء فوجئتِ بهدوء مريب يغطي كل شيء، كأن أصوات الصراخ والسحل والضرب، التي وصلتكِ قبلها بقليل، كانت تنبع من عالم آخر. كنت خائفة، عليكِ الاعتراف بهذا، ومع ذلك طفتِ بالشوارع تبحثين عن مظاهرة ما للالتحاق بها. هنا مكانك، مع هؤلاء الغاضبين وبينهم. عربات الأمن المركزي الكئيبة كانت تسيّج كل شبر. والهدوء المخاتل، لم ينجح في تبديد الرائحة الكريهة للغازات المسيلة للدموع. رائحة تبدو كأنها مادة صلبة تقف حاجزاً بينك وبين العالم.

كان الليل قد ألقى بعباءته الداكنة. المصابيح المضاءة هنا وهناك لم تنجح في إزاحته، لتبدو المدينة كما اعتدتِ أن تصفيها: مدينة شبحية تجاهد كي تبدو على غير حقيقتها.

في لحظتكِ ذاك، كان ثمة اختلاف، فهذا الغضب اللامبالي بالعنف والوحشية وضع البلد بكامله في الضوء: عرّى التجاعيد، وكشف السوس الهائل – الذي اعتاد أن ينخر في الجسد العجوز – تمهيداً للقضاء عليه.

وقتها، وبينما تسيرين في الشوارع تتسولين بعض الأكسجين بعيداً عن الغاز الكريه، بدت النتائج النهائية ضبابية، لكن حدسكِ أسرّ لكِ، بأن ما يجري وما سيجري يختلف عن كل ما مر.

في أيام تالية، كان ثمة: صدور عارية تستقبل الرصاص الحي والمطاطي. عصابات مسلحة تهاجم البيوت. امرأةً وحيدةً بملابس شعبية، تخطو في الحي الفخم، باكيةً ابنها، العامل البسيط، الذي اخترقت رصاصة حلقه تاركةً إياه في المستشفى غير قادر على الحراك. وصديق للعائلة قتلته رصاصة غادرة قبل أن ينتهي من رسم اللوحة، التي تركها في مرسمه على عجل، من أجل مشاركة رفاقه الغاضبين في رقصة الحياة بالشوارع والميادين.

وأنتِ وسط هذا كله. كنتِ تتحركين كمن سيفقد حياته بعد قليل ويرغب في التهام أقصى ما يستطيعه منها قبل فقدها. غير أنكِ لم تفقدي حياتك، بل على العكس قمتِ باستعادتها. الضابط الجهم الذي صرخ في وجهكِ وألقى بكِ كي ترتطمي بحافة الرصيف، منحكِ سراً صغيراً، قررتِ لحظتها، ألاّ تبوحي به لأحد: كدمات زرقاء، رحتِ تتخيلينها منطبعة في جسدك، تدريكِ على التعاطي مع الألم، لفترة لا بأس بها. حين بدأ عنفه نحوكِ يتصاعد، قلتِ لنفسكِ: ما معنى كدمات مخيفة أمام الأرواح التي تحصدها آلات القتل البشرية الحاقدة؟ ولمّا شرع في جركِ من شعركِ وركلكِ دونما توقف، أخذتِ مغمضة

العينين، تستعيدين أفكار حنا أرنت عن عادية الشر، كشذرات بلا رابط يجمعها.

كنتِ كالملقاة في جب عميق، أسفله مغطى برمل يتسرب إلى أنفاسك، ويترسب في رئتيك، مسمماً إحساسك بالوجود. تصحر من نوع جديد كان يزحف بداخلك، وأنت مرمية في ذاك القاع، تصرخين مغمضة العينين.

العالم كله يجري في الداخل، تراه عيناكِ المغمضتان كأنما تراقبان حياتك تنفصل عنك وتتوه منكِ في الزحام. عمياء، ومقيّدة بأصفاد قاسية، بدأتِ تتخيلين نفسك تصعدين درَجاً وهمياً بعد أن ظللتِ طوال عمرك تراوحين مكانك. ثلاث درجات لأعلى تتبعينها بثلاث درجات لأسفل، هكذا عشتِ حياتك السابقة.

كان إغماض العينين لحظة احتضان الرصيف لكِ، هو سبيلك الوحيد لاستدعاء البهجة، لرؤية ما وراء الإهانة والألم والركلات: قوس قزح، لحظات الطفولة الهاربة، أزهار الخوخ، وأريج الياسمين.

للياسمين مكانة خاصة في ذاكرتكِ، أريجه مختلطاً بالفانيليا، وعبير زهر البرتقال، مزيج يعني الحياة. نعم، ثمة أشياء، كانت لا تزال قادرة على استدعاء الحياة وإيقاظها بداخلك، وإلاّ كيف انتبهت لدفقة النور الهائلة التي انبثقت أمامك فجأة لتساعدك على صعود الدرَج إلى أعلى، حيث الحياة كما هي لا كما كنتِ تراقبينها عن بعد.

ا.ل.ح.ي.ا.ة كانت تتنظرك هناك وسط الجموع الهاتفة الغاضبة: أصوات رصاص، نيران تشتعل خلفك وبجوارك، وغازات تحرق جلدك وتعميك عن الرؤية، ويد باطشة تلقيك بقسوة فوق الرصيف الصلب. كل هذه الأشياء كانت دليلاً على أنك لا تزالين حية.

أبريل ٢٠١١

ربيع داكن

في البداية ظهروا على استحياء!

فرادى يرتدون السواد، يسيرون بهدوء، ويدققون النظر فيما حولهم كأنما يقيسون الهواء بأعينهم. لم ننتبه لهم إلا بعد أن باتوا يتحركون في جماعات من خمسة أشخاص أو أكثر. بالهدوء نفسه والنظرة المدققة ذاتها، يذرعون الشوارع والميادين بلا كلل.

لم يعرف أحد من أين جاءوا؟ ولا لماذا يتحركون بهذه الطريقة المتماثلة؟ كانوا مثلنا تماماً لا يفرقهم عنّا إلا زيهم الموحد وطريقتهم الغريبة في التحرك الذي يبدو بلا هدف ولا نهاية.

كنتُ إذا قابلت أحدهم في الشارع ألقي عليه التحية – بدافع الفضول – مبتسمة، فلا يرد عليّ، ولا ينظر حتى ناحيتي. لم أعرف أنهم يلفتون نظر الآخرين إلا حين جاءتني جارتي الستينية ذات الشعر المصبوغ بعناية والملامح التي لم تقدر السنوات على النيل من نضارتها لتحذرني من الداكنين، كما أسمتهم. بدت متحمسة بشكل طفولي وهي تخبرني

بالشائعات المثارة حولهم، قالت إن هناك من يرى أنهم أعضاء في جماعة ماسونية، في حين أكد آخرون أنهم من عبدة الشيطان، غير أن الرأي الذي رجحته هي أنهم ينتمون لحركة سياسية غامضة تهدف لبسط سيطرتها على البلد. لم تقدم دليلاً مقنعاً على كلامها، غير أنها بدت مؤمنة بخطورتهم ولم ترتح لعدم تحمسي.

انشغلت الصحف هي الأخرى في تلفيق الحكاية تلو الأخرى حولهم، ثم العودة لتفنيدها واحدة واحدة، مستبدلة إياها بحكايات جديدة لا تقل طرافة. بدا الأمر أشبه بلعبة مسلية يتواطأ الجميع على الاشتراك فيها. قالت صحف إن هؤلاء ما هم إلا تمثيلية لشغل الناس عن تدهور أوضاعهم المعيشية، ودللوا على هذا بعدم تصدي الأمن لهم على الرغم من وحشيته مع أي خروج ولو بسيط على النظام. وألمحت صحف أخرى إلى أنهم مجموعة غريبة لكن مسالمة يتم متابعتها بدقة ترقباً لأي تغيير محتمل في نشاطها. كنت أضحك كل صباح وأنا أتابع الانشغال الهيستيري للصحف بمتابعتهم، متخيلةً أن جارتي المسنّة هي من تمد المحررين بهذه التأويلات.

ثم بدأت الكتابات على الجدران: جمل غاضبة تلعن كل شيء، مكتوبة بقلم أسود عريض يشبه الفحم، وبخط كوفي دقيق معتنى بجماله عناية تتناقض مع كم الغضب المبثوث في ثنايا الجمل.

كل جدار في المدينة أصبح رقعة تفور بالكلمات الحانقة، ومع تزايد نبرة الغضب على الجدران، كانت حركات الداكنين

تزداد هدوءاً، وملامحهم يطغى عليها نوع من المكينة الغامضة، وإن ظلوا على نظرتهم المحدقة في الأفق أمامهم.

كانوا كأنما لا يبصروننا، وكنا نحن نطيل النظر إليهم أملاً في أن يلتفتوا إلينا، لذا ارتفعت حوادث المرور في الأماكن التي يظهرون فيها لانشغال قائدي السيارات بمتابعتهم.

بعد أن كنت أحاول لفت نظرهم في البداية، أصبحت عندما أخرج لعملي، أو للتنزه في الحديقة المجاورة مع ابنتي الصغيرة، أحاول قدر طاقتي تحاشي النظر إليهم، وشددتُ على طفلتي أن تحذو حذوي، ولمّا سألتني عن السبب لم أجد رداً مقنعاً، فأخبرتها أنهم مصابون بنوع نادر من الجنون يظهر فقط إذا التقت عيونهم بعيون الآخرين.

بعد ما يقرب من شهر، بدت الجدران غير كافية للتنفيس عن الغضب المكتوم، فبتنا نُفاجأ حين نفتح أبواب بيوتنا كل صباح برسائل – مكتوبة بالخط الكوفي الجميل على ورق مقوى ومطوية في شكل إسطواني ومربوطة بشريط أسود– تحمل الجمل نفسها على الحوائط والجدران، وإن أضيفت لها جمل أخرى من قبيل: "الأسود هو الكمال"! أو "العودة للكوفي.. عودة للجمال"!

وصولهم، أياً كانوا، إلى عتبات البيوت أقلق الجميع. في العمل، في محال البقالة، وفي المتنزهات كنت أسمع الناس يتناقشون حول: من هؤلاء؟ وماذا يريدون؟ وهل الداكنون هم، فعلاً، مرسلو الرسائل؟ ترسّخت خشية من أن يتطور الأمر إلى اقتحام البيوت نفسها، على رغم عدم وجود قرائن تُبشر بذلك.

كانت جارتي المسيحية، تمر عليَّ يوميا لتخبرني عن تزايد عدد مرتدي السواد في الشوارع، تجلس متململة في البداية وهي تضم ذراعيها فوق صدرها، ثم تبرق عيناها حين تبدأ في الحديث عنهم، ترفع خصلة من شعرها المصبوغ عن جبهتها فتبين الغضون المنثورة عليها، قبل أن تؤكد أن خطوتهم التالية هي التجول في غرف نومنا، والنوم فوق أسرتنا. أكاد أضحك حين أتصور أن هذا هو الهدف النهائي الذي يتكبدون من أجله كل هذا العناء، غير أني أتظاهر بالاهتمام. تتحدث عنهم كأنهم شر مطلق مبررة ذلك بأنهم، حتى في رسائلهم، لا يعلنون هدفاً محدداً ولا مطالب واضحة، فقط يتذمرون ويكتبون هراءات غامضة عن الخط الكوفي، ويملأون المدينة بملابسهم باللغة القاتمة.

مع مقدم الربيع، كان الناس قد انشغلوا عن هؤلاء الداكنين، على رغم تضاعف أعدادهم، واستمرارهم في مسيراتهم الطقوسية الصامتة ورسائلهم الحانقة وكتاباتهم بالخط الكوفي على جدران المدينة. كان كل منا كأنما يرغب في التلهي عنهم، أو كأنهم – من فرط التكرار والتعود – قد أصبحوا تفصيلة من تفاصيل حياتنا اليومية، مثلهم مثل بائعي الجرائد بفرشاتهم على النواصي، والمتسولين المنتشرين في كل مكان، والشجر المتشابه في طرقات المدينة وحدائقها الكثيرة. وحدها جارتي ظلت على اهتمامها بهم، وعلى تصديع رأسي بسيناريوهات عديدة تؤلفها عنهم.

مدينتنا في الربيع غيرها في أي فصل سواه، والربيع فيها غيره في أي مكان عداها. ثمة أشجار لا تُحصى تزنّر الطرقات والشوارع والميادين، وحين يأتي الربيع تتوهج بألوان متآلفة من الأخضر بدرجاته الزاهية للأوراق، والأحمر والوردي والبنفسجي للزهور المختلفة. الحدائق والمتنزهات أيضا تضيف بصمتها إلى لوحة الطبيعة، مهرجان الألوان هذا بدا كأنما وحده القادر على معادلة اللون الأسود الذي كاد يستولي على المشهد بأسره، وعلى تحرير المدينة من قتامتها الطارئة.

لكن كما في أفلام الرعب، حين يطل الخطر الحقيقي في اللحظة التي يبدأ فيها الأبطال في الإحساس بانزياحه، كشفت الطمأنينة التي سرّبها الربيع عن هشاشتها مع رسائل إلكترونية بدأت تصلنا بوتيرة متسارعة. رسائل أعادت الخوف لدرجات أعلى من السابق، وحفزّت جارتي الستينية بملامحها الطفولية على المكوث لفترات أطول عندي تحدثني عن مخاوفها وتوقعاتها.

على مدار شهر كامل تسلّمنا رسالة إلكترونية واحدة لا تتغير، تطالبنا بعدم الخروج من البيت في الأربعاء الأول من الشهر القادم ويرفع أعلام سود فوق شرفات منازلنا، وإذا حدث وخرجنا علينا أن نرتدي الأسود.

"خليك في البيت أو شاركنا في الميادين العامة باللون الأسود وبأعلام سودا. قل لأصحابك وأهلك مايروحوش الشغل هما كمان وخليهم ينضموا لنا. كل شيء لازم يتغير ولازم تساعدونا، لازم نرجع للأصل، للأسود، للكوني.. وإلا فالفوضى

الشاملة هي البديل الوحيد". ما لفت النظر أن الرسالة كانت صورة لورقة مكتوبة أيضاً بالخط الكوفي وبلون أسود فاحم.

مع تكرار إرسال هذه الرسالة، كان لابد من مواجهة مباشرة بين السلطات ومرتدي السواد، أصبح حضور العساكر والضباط أكثر كثافة من ذي قبل، سجنوا كثيراً من الداكنين، وطاردوهم في كل مكان من دون جدوى، كانوا كأنهم ينبتون من العدم، أعدادهم في ازدياد، ومسيراتهم لا تنتهي. حُذرنا بشدة من الانضمام إليهم. صدرت قرارات مضحكة بمنع ارتداء اللون الأسود، وعدم الكتابة بالخط الكوفي، وتم إلقاء القبض على كثير من الخطاطين للتحقيق معهم.

بدأ كثيرون في التعاطف مع الداكنين، حتى جارتي العجوز كفّت عن نقمتها عليهم، ووجدت في ما يحدث فرصة إضافية للإقامة شبه الكاملة عندي وهي تشرح لي أسباب تغير موقفها منهم. قالت إنها قرأت كثيراً في الأيام الماضية، وعرفت أن العلم الأسود كان رمزاً للخلافة العباسية، وأن الخط الكوفي هو أحد أشهر الخطوط العربية، وأنه استخدم بالأساس في كتابة المصحف، واستنتجت من هذا أن الداكنين يدعوننا للعودة إلى أصول حضارتنا، ثم عادت في اليوم التالي لتقول إن العلم الأسود كان أيضا رمزاً للفوضويين وإنها محتارة.

بدأت الصحف في تسمية اليوم الموعود بيوم الإضراب، ودعتنا جميعاً للنزول إلى أعمالنا بملابس ملونة مبهجة، والتحرك في الشارع بحرية لوقف هؤلاء الدخلاء عند حدهم. أعلنت تقارير مصورة أنهم عملاء لجهات أجنبية لم تحددها،

وظهرت أصص لزهور ونباتات مشرقة بكثافة في الميادين العامة والشوارع كأن المدينة تشهد مهرجاناً ما.

اليوم الذي حدده الداكنون للإضراب جاء عاصفاً مترباً، كأن الطبيعة أرادت دعمهم، عبر إجبارنا على المكوث في بيوتنا، وعلى الرغم من هذا اضطررت للنزول للعمل خوفاً من تهديدات مديري ووعيد نشرات الأخبار المهددة بعقوبات صارمة على من يستجيب للمخربين كما أطلقت عليهم. لكنّ خوفي لم يكن كاملاً إذ صممت على ارتداء الأسود في إشارة دعم سلبي للداكنين.

استيقظتُ في موعدي وجمعت كل أشيائي في حقيبة يدي بسرعة، وساعدتُ ابنتي في حمل حقيبتها المدرسية المكتظة بالكتب والكراسات. نزلتُ على الدَرج بسرعة وحملتُ عنها حقيبتها فيما تبعتني هي بهدوء وهي تدندن بأغنية إنجليزية تعلمتها لتوّها في المدرسة. دائما ما نصل لمدرستها متأخرتين، غير أني في هذا اليوم لم أكن مهتمة بذلك. كنت أعرف أن عليّ ألا أخرج أصلاً. تذكرت كلمات المدير وهو يؤكد علينا ضرورة الحضور. قال باقتضاب إنها تعليمات عليا لا بد له فيها واستدار خارجاً دون أن يعطي لأحدنا فرصة للاعتراض.

في الحقيقة لم أرغب في التغيب عن العمل تضامناً مع الداكنين. لستُ ضدهم، لكنني أيضاً لستُ معهم. بالأحرى لا أعرف عنهم ولا عن دوافعهم أي شيء. كما لا أثق في جدوى الإضراب، ولا أعرف ما الذي يمكن أن يؤول إليه في النهاية. خفت من فوضى محتملة قد تخرّب كل شيء. هم طالبونا بعدم

الخروج، لكنهم أعلنوا أنهم سيكونون في الميادين العامة بملابسهم الداكنة، والله وحده أعلم بما قد يؤدي إليه هذا. فكّرت كثيراً في أن أجنّب ابنتي إرهاق هذا اليوم، غير أن تهديدات المدير منعتني من المضي قدماً. ابنتي أيضاً وعلى الرغم من سنواتها السبع كانت مبتهجة وتشعر بقدر غير قليل من الإثارة، قطعت فجأة أغنيتها الإنجليزية وسألتني وعيناها تلمعان بفضول: يعني إيه إضراب يا مامي؟

اندهشت كيف عرفت به رغم أني لم أذكر الكلمة أمامها، وأجبت: يعني الناس تفضل في بيوتها وما تنزلش شغلها.

- طيب إيه هو الخط الكوفي؟!!
- ده خط قديم لكتابة اللغة العربية.
- ....

ارتسمت علامة استفهام في عينيها وضحكت بجذل، وهي تحاول اللحاق بي في طريقي للسيارة الصغيرة المركونة أمام البيت.

لدهشتي كانت الشوارع شبه خالية بالفعل، كأن كل سكان المدينة غادروها فجأة. العاصفة الترابية حوّلت السماء إلى لون يقترب من الأصفر الباهت مع أننا في الصباح، ورائحة التراب تتفوق على ما عداها. القلائل المتواجدون في الشوارع والطرقات كانوا مثلي يرتدون الأسود. أوصلتُ ابنتي إلى مدرستها فكادت المشرفة تعيدها لي بحجة أنها الوحيدة التي حضرت، ولا يمكنهم أن يفتحوا المدرسة لطالبة واحدة، فهددتها بأن اليوم يوم دراسة عادي وليس أجازة ومن ثم لا يمكنها غلق

المدرسة، استلمت المشرفة ابنتي متبرمة في حين نظرت لي الصغيرة نظرة معاتبة، خجلي من تصرفي.

وصلتُ إلى عملي، ففوجئت بأن معظم زملائي لم يأتوا، ومن جاءوا كانوا مثلي يرتدون الأسود، المدير نفسه كان يرتدي ملابس سوداء بالكامل، بدا مرتبكاً حين نظرت له مندهشة، وتحاشى الكلام معنا طوال اليوم. فقط أخذ يتحرك بين المكاتب وهو يصيخ السمع لصوت الريح بالخارج. تحاشينا جميعاً ذكر أي شيء عن الداكنين واكتفينا بالانكفاء على عملنا، وتبادل حوارات سريعة حول العاصفة الترابية والرداءة المفاجئة للجو.

في الأيام التالية ألحت الصحف وقنوات التليفزيون على الفشل الذريع للداكنين، أكدوا أن من امتنعوا عن النزول للشارع فعلوا ذلك تفادياً للعاصفة الترابية لا استجابةً لدعوات المخربين.

تم الإعلان عن مهرجان كبير لزهور الربيع في الحدائق والمتنزهات العامة، اصطحبت ابنتي إليه، سرت معها في الشوارع حتى وصلنا لأقرب حديقة عامة لبيتنا. لم تقابل أي شخص في الطريق، إلا أن الحديقة كانت مزدحمة بالزوار ممن يرتدون السواد. تجولنا بين بائعي الزهور وشتلات النباتات بهدوء. التقطت لها صوراً عديدة بجوار الزهور التي أحبتها، اشتريت بضعة أنواع من الصبار، في حين اختارت هي نبتة جاردينيا كي تعتني بها. وغادرنا الحديقة بسرعة وأنا أتجنب النظر لروادها الداكنين.

لم يعترف أحد أن المدينة كلها صارت ترتدي الأسود، بما في ذلك المذيعون الذين هللوا لفشل "المخربين"، والعساكر الذين اعتادوا ملاحقتهم.

أضحى الجميع يرفل في ملابس سوداء، ويسير بنظرات مدققة كأنما تقيس الهواء في مواجهتها، غير أن الرسائل والكتابات الغاضبة على الجدران بالخط الكوفي باتت ذكريات هاربة، كأنما تنتمي لأزمان غابرة.

مايو ٢٠١٠

Déjà vu

لمع المشهد في ذهن سميحة فجأة بينما تقف بسيارتها في ذلك السوق الشعبي للخضر!

كانت تقود بسرعة كبيرة على الطريق الدائري آتيةً من مصر الجديدة إلى حدائق الأهرام حيث تقيم، وبينما تدندن بكلمات أغنية لنجاة الصغيرة، سهت ونزلت من منزل صفط اللبن بدلا من المريوطية. فوجدت بنفسها في منطقة غريبة تماما عليها إلى درجة ظنت معها أنها في مكان غير المدينة التي وُلدت فيها.

منطقة شعبية، شوارعها ضيقة وغير معبّدة، يتوسطها سوق صغير للخضر يجعل العبور بالسيارة مستحيلاً من دون الاصطدام بفرشات الطماطم والباذنجان والبصل المتناثرة هنا وهناك. منطقة تشبه كثيراً وصف كريم لمكان سكنه.

بدأت تشعر بالارتباك فقللت من سرعة سيارتها، وفجأة أحست أنها مرّت بهذا الموقف من قبل، كأنها ليست في هذا المكان بالفعل، بقدر ما تتذكر أنها كانت كذلك في الماضي؛ كانت بكل ما يجري حولها كأنها مجرد ذكرى مختزنة في

عقلها، ذكرى ظلت مأسورة لسنوات ثم تحررت فجأة لتبدو كلحظة حاضرة.

لم تكن المرة الأولى التي تختبر فيها حالة "Déjà vu"، غير أنها الأكثر غرابة. في المرات السابقة اعتادت أن تحس فقط بأنها مرت باللحظة من قبل، وتجبر نفسها على التفوه بكلمات معينة كي تتطابق مع ما تتذكر أنها عاشته قبلاً، ثم فجأة يتلاشى كل شيء من ذاكرتها، تصبح الذكرى مجرد بقعة خافتة الإضاءة في صحراء شاسعة من العتمة.

أما الآن فتشعر أن هذا المكان الذي تراه للمرة الأولى قد فتح باباً لمنطقة معتمة في داخلها، لحياة ربما عاشتها في السابق. رأت نفسها كأنها تناضل للخروج من حطام حادث مروع، ثم تلاشى كل شيء من جديد، وعادت مرة أخرى امرأة تناضل لتخرج بسيارتها من هذه المنطقة المزدحمة والضيقة.

خرجت إلى شارع موازٍ لشارع السوق لكنه أوسع منه، ثم وجدت نفسها في النهاية في منطقة المريوطية التي اتجهت منها إلى حدائق الأهرام، فبدأت تشعر بالهدوء.

وكما انبثق المشهد في رأسها من العدم، انبثق أيضا وجه امرأة شابة بعينين واسعتين ونظرة عميقة، وجبهة بارزة قليلاً إلى الأمام، امرأة تشبه خادمتها نورا تماماً.

كانتا تسيران معاً في مكان مشابه للسوق، نورا تسعل بشدة، وسميحة تربت كتفها محاولة أن تشغلها بثرثرات لا تنتهي.

رنّ صوتُ سعال نورا في أذنها كما لو كان حقيقة حاضرة، كأنها تراها وجسدها يرتعش قليلاً من أثر السعال المتواصل، غير أن المكان الذي كانتا تتحركان فيه ظلّ غامضاً، هو فقط يشبه سوق الخضر بضوضائه وزحامه، لكنه يبدو غارقاً في ضباب كثيف.

حاولت تجاهل الأمر والتركيز فقط على الطريق أمامها، لكنّ جسد نورا المرتعش ووجهها ذا العينين الواسعتين استمرا في التّراقص أمام سميحة حتى وصلت إلى بيتها.

كانت تشعر بانقباض لا تفهم مبرره. دخلت إلى حجرة نومها، تمددت فوق الفراش وعيناها مثبتتان على السقف. ومن دون مقدمات جاءتها الأحداث كما لو كانت تحلم: نورا تتألم إلى جوارها بصوت مجروح من دون أن تبصرها، فيما هي محشورة في مقعد السائق غير قادرة على تمييز أي شيء حولها سوى صوت الأنين المختلط بضجة مزعجة وطنين يكاد يشق رأسها، وخبط متواصل على أبواب السيارة. من بين هذه الضجة ميّزت جملة "دي ماتت" قبل أن يتلاشى كل شيء.

غرقت في النوم، وحين استيقظت كانت لا تزال مرتدية ملابس الخروج وتعاني من صداع شديد وشعور بضيق بالغ تخلّفه عادة ليلة مليئة بالكوابيس على رغم عدم تذكرها لأيٍّ منها. ذهنها فقط مشبّع بشذرات مبهمة تبعث على كآبة غير مفهومة. أخذت جملة "دي ماتت" ترنّ في رأسها بلا توقف.

بدت نورا كأنما تختبئ منها في ظلام غريب للحظات قبل أن تعود لتظهر لها من جديد. سعال وجسد مرتعش وعينان

واسعتان. امرأتان تسيران معا في ما يشبه سوقاً شعبياً قديماً، ولا شيء أكثر.

سحبت الهاتف الموضوع على الكومود إلى جوارها، واتصلت بكريم.

كانت موقنة من أنه لم يفق من نومه بعد، لذا لم تستسلم حين لم يرد من المرة الأولى، عاودت المحاولة بإلحاح لن ينفع معه أي تجاهل.

خرج صوتها متوتراً رغماً عنها: تعال فورا... الحقني!

أنهت المكالمة كعادتها قبل أن تستمع إلى رده. خافت أن يواصل نومه متجاهلاً إياها، فكرت أن تهاتفه مرة أخرى، لكنها لم تفعل لتذكّرها جملته، التي صفعت أذنها في نوبة من نوبات غضبه النادرة، بأنه ملّ من مكالماتها المماثلة، وأنه يحضر فقط خوفاً من دوامات الشكوى والنحيب التي ستغرقه فيها لو تجاهلها، لم يعد يخشى كثيراً أن تكون في ورطة فعلية.

تتخيله ينهض ببطء من الفراش بعدما أيقظته هي، وتتخيل أخرى شابة راقدة إلى جواره. تزعجها الفكرة، فتضع سيناريواً بديلاً، تراه يزيح الغطاء عن جسده بنشاط، ويقوم مسرعا، تتعثر قدمه، فيقع بقوة على كوعه الأيمن، يلعن حظه العاثر. يتذكر أنه لم يرها منذ عشرة أيام، فيعرف أن حظه ليس عاثراً إلى تلك الدرجة، يكفي أنها هي من اتصل به، بدلاً من أن يزورها هو فجأة، أو يلحّ عليها كي تقابله.

يترك هذا السيناريو هو الآخر كآبة لا تنقصها، تتساءل: كيف لم يتصل بها طوال عشرة أيام؟!

في العاشرة تماماً سمعت رنّة جرس الباب، أنصتت إلى صوت نورا ترحب به بحماسة، وتقوده إلى حيث تجلس هي في الشرفة المطلة على الأهرامات.

جلست سميحة شاردة وحزينة وقد رفعت شعرها الأسود كله إلى أعلى وهي ترتدي فستاناً بلا أكمام من الكتان الأزرق وأمامها على المنضدة زجاجة نبيذ وأطباق عدة مليئة بـ"المزات". لم تعتد أن تشرب مبكراً هكذا، لكنها اليوم غير قادرة على تحمل مزاجها الكئيب من دون شرب.

صبّت له بعض النبيذ في الكأس بمجرد أن رأته، ومن دون أي كلمات ترحيب، أشارت إلى الكرسي المواجه لها كي يجلس. لم تتكلم معه لمدة... فقط تنظر بشرود نحو الأهرامات القريبة أو تراقب نباتات الحديقة من جهنمية وياسمين وغرنق باهتمام، تتناول المكسرات، وترتشف رشفة من كأسها بين آن وآخر.

تشاغل عنها بأكل الكاجو واللوز، فتذكرت مصطفى حبيبها السابق الذي عرّفها إلى كريم، اعتادت أن تقارن بينهما، أحبت مصطفى كثيرا، تحملت نزقه وشكّها الدائم في إخلاصه لها، ولطالما تساءلت: هل عرّفها إلى كريم حين بدأ يضجر منها؟ أكان واثقا من أنها ستعجب بصديقه، وساعتذاك يمكنه التخلص منها من دون تهديداتها المتواصلة بالانتحار؟

ندمت فجأة على هذه التهديدات، وتمنّت لو تمسحها من حياتها ككل، لا من ذاكرتها فقط. هل أخبره كريم أن علاقته

بها بدأت قبل أن يهجرها هو؟ لا تعرف لماذا هاتفت كريم في اليوم التالي مباشرة. ولا كيف انتهى الأمر بهما معا في الفراش.

استدارت إليه أخيراً، وقد عادت لها ابتسامتها الساحرة، كأنما ضغطت زراً مسح عنها الحزن والتوتر وأحضر ابتسامة موظفي العلاقات العامة.

سألته:

– تفتكر إني ممكن اقتل؟ أو على الأقل أكون اتسببت في موت حد؟

أجابها بلا تفكير:

– لو ممكن تقتلي كنت قتلت مصطفى.

انزعجت بشدة بمجرد أن نطق باسم مصطفى. بينهما اتفاق غير معلن على تحاشي ذكر اسمه. ككل قواعد علاقتهما، كانت هي من سن هذه القاعدة من غير أن تقولها صراحة.

اعتادت أن تشير إلى حبيبها السابق بـ"هو". تقول إنها مدينة له بالكثير. علمها كيف تستمتع بأغاني أم كلثوم بعدما أمضت عمرها كله في الاستماع إلى الأغاني الأجنبية وحدها. وتسهب في كيف جعلها تستسيغ الروائح الشرقية بعدما كانت لا تطيقها. يمكنها أن تتحدث لساعات عن أفضال تافهة له عليها، من دون أن تشير إلى أنه استولى على جزء كبير من ثروتها.

مثل كريم، كان يصغرها بأكثر من عشرين عاما وينتمي إلى أسرة فقيرة. اعتاد أن يرافقها كظلها في كل مكان توجد فيه.

وهو معها لا يبدو على الإطلاق كحبيب لها، كان يشبه مساعداً شخصياً أو سكرتيراً يتودد لأصدقائها وصديقاتها. وهذا ما يفعله كريم حاليا كأنه تحوّل دوبلير أو وارثاً له. وارث أقل مهارة وجاذبية.

انتقل انزعاجها إلى كريم، وندم بشدة على نطقه باسم مصطفى، غير أنها عادت لتجاهل ما يقوله، مواصلةً كلامها:

- كريم، أنا شفت كأني اتسببت في موت نورا. هل ممكن أكون آذيتها في حياة سابقة وراجعة تنتقم مني؟

لمحت ارتباكاً سرعان ما نجح في قمعه قبل أن يسألها ساخراً:

- حياة إيه حضرتك؟!

نظرت له بريبة، كأنها تفكر في وضعه مع نورا في خانة أعداء الحيوات السابقة. إلا أنها مسحت فجأة نظرة الريبة، وبدأت مونولوغاً طويلاً لا علاقة له بما كانت تقوله.

تكلمت عن تقلبات الطقس وأخلاق الرعاع التي سيطرت على المجتمع، وزيادة الفقر والأصولية. كانت تتحدث كأنها تدلي بآراء خطيرة في برنامج تلفزيوني، وبين وقت وآخر تنظر حولها بخفة كأن هناك متفرجين غير مرئيين يتابعونها باهتمام.

كلمات كثيرة قالتها من دون أن تلاحظ أن كريم لم ينتبه إلى حرف واحد منها، لأنه انشغل بمراقبة شفتيها المكتنزتين، وتأمل تفاصيل جسدها الذي بدأ يميل إلى الامتلاء، ونظرة عينيها المغلفة بطبقة كثيفة من الغموض الموحي المتحدي، بصمات السنوات القاسية على بشرتها. وجّهت بصرها إليه،

فتعرفت إلى نظرته حين يشتهيها. وذّت لو يمارس الجنس معها الآن.

حتى أثناء الجنس كانت لا تتنازل عن ابتسامتها المرسومة بعناية على شفتيها. تغمض عينيها فتبدو كما لو أصبحت في عالم آخر، وحين ينتهيان يبدأ توتّرها. تنغلق على نفسها وتبكي في بعض الأحيان، أو تتعامل معه بحدة غير مبررة، قبل أن تعتذر باكيةً بعدها بساعات أو في اليوم التالي.

التقطت عيناها انحسار الشهوة العابرة عن محياه، ليعود محاولاً الإنصات، فواصلت مونولوجها الذي يجعلها تبدو كما لو كانت تصدّق كل كلمة فيه.

هذا الصدق البادي عليها في كل تصرفاتها خصوصاً حين تكذب، كان أكثر ما يميزها. لم يكن تمثيلاً، أو على الأقل، كان ذلك النوع من التمثيل الذي يتماهى فيه الممثل مع الشخصية التي يؤديها بحيث تكف شخصيته الأصلية عن الوجود. غير أن المذهل في حالتها أنها كانت كل يوم في شخصية مختلفة، تتقمصها، ثم تهجرها في اليوم التالي الى شخصية أخرى.

كانت أحيانا تتحول من شخصية إلى أخرى بسرعة مزعجة، في جلسة واحدة تكون المرأة المثالية، داعية المحبة، فالضعيفة الواقفة على شفا انهيار عصبي حاد، ثم الأنثى الخطرة القوية الشخصية المهووسة بالسيطرة، إلى آخر الشخصيات المختلفة التي تدور بينها من دون أن تتنازل البتة

عن طابعها الأريستوقراطي أو الابتسامة الرقيقة المرسومة على شفتيها، التي تضفي عليها مزيداً من الغموض.

ظهرت نورا فجأة. مرت بالقرب منهما، ونظرت إليها، فارتبكت لبرهة. غادرت نورا الشرفة، فتبعتها هي بسرعة بعدما استأذنته لدقيقة. عادت من جديد وابتسامتها العفوية تتألق على شفتيها، غير أن حزناً عميقاً بدأ يسكن نظرتها.

بدت شاردة، وتساءلت هل وصلت همهماتها الغاضبة مع نورا إلى أذنيه؟ حتى هذه اللحظة لم ترد أن تخبره بالسبب الحقيقي وراء اتصالها الصباحي به وإصرارها على حضوره فوراً. بعدما قررت أن تناقش معه كل شيء بهدوء، عادت وترددت.

بات صوتها أكثر خفوتاً عما سبق، وبين وقت وآخر كانت تنظر نحو المكان الذي وقفت نورا فيه منذ قليل.

رجعت نورا بخطوات صاخبة، تحمل في يدها باقة من القرنفل البلدي، قطفتها لتوّها من الحديقة. خصّته بنظرة متفحصة في طريقها إلى المزهرية الموضوعة فوق طاولة صغيرة في طرف الشرفة. أخرجت الورود المتفتحة من المزهرية ووضعت باقة القرنفل بدلاً منها، ثم حملت الورود وغادرت وهي تدندن بكلمات أغنية رائجة. في هذه الأثناء كانت سميحة صامتة تماماً، وثمة رجفة خفيفة تعتريها.

بمجرد خروج نورا من الشرفة، انتفضت سميحة قائمة، فقام بدوره. قالت بصوت خافت:

- مش هنعرف نتكلم هنا، إيه رأيك نخرج سوا بالليل؟

ردّ بخفوت مقلّداً إياها:

- مش هينفع، أنا مفلس ومحبط.

قامت بنشاط، واختفت لدقائق، عادت بمبلغ أعطته إياه مبتسمة، ثم قادته إلى الخارج. وما إن أصبحا في الحديقة، يقفان بين شجيرات الجهنمية والقرنفل البلدي، حتى طلبت منه عنوانه واعدة إياه بمفاجأة.

فور ابتعاده، أخذت تتجول وحدها في الحديقة، اقتربت من شجيرة ورد بلدي، مدّت يدها نحو وردة حمراء لم تتفتح بعد، فنغزتها شوكة حادة، تراجعت إلى الخلف قليلاً وقد طفرت الدموع من عينيها. مسحتها بسرعة واستدارت في طريقها الى الداخل، خيّل إليها للحظات أن نورا تراقبها عبر النافذة من وراء الستار، إلا أنها حين دققت النظر لم تجد أحداً.

بعد الرابعة عصراً أخبرت نورا أنها ذاهبة لمقابلة صديقة لها ولن تأتي إلا متأخراً. تركت سيارتها، واستقلت سيارة أجرة، طلبت من سائقها أن يوصلها إلى عنوان كريم. نظر الرجل إلى ملابسها الأنيقة وطلتها الأريستوقراطية محاولاً تبيّن سبب توجهها إلى هذا المكان، لكنه لم يتكلم.

تذكرت فجأة أن نورا وضعت الورد البلدي في المزهرية، وعادت بعد ساعة لتضع باقة القرنفل بدلاً منه بلا مبرر. أبعدت الفكرة عنها وحاولت استدعاء كريم إلى ذهنها، أزعجتها نظرة معينة لمحته يختلسها إلى خادمتها الشابة.

كانت سيارة الأجرة قد وصلت إلى منطقة صفط اللبن بشوارعها الترابية الضيقة. تأملت الفوضى المنتشرة، والبيوت

القديمة شبه الملاصقة، فشعرت بالمسافة التي تفصل كريم عنها، وتضايقت لذلك. فكرت أن الإحساس نفسه لا بد أنه يصله حين يسير إلى جوارها في نادي الجزيرة أو حفلات الكوكتيل في بيوت صديقاتها.

توقفت سيارة الأجرة، وأشار السائق إلى بناية قريبة. خرجت من السيارة لتجد نفسها في سوق مشابه للذي تاهت فيه أمس. سارت متصنعة الهدوء والجميع ينظر إليها باندهاش. أدركت أن دخولها شقة كريم سيلفت الأنظار حتماً، فتراجعت عن الفكرة ووقفت في ركن منزوٍ تتأمل المكان الذي يعيش فيه. فكرت أن نورا لو جاءت هنا وأرادت التسلل إلى شقة كريم فستكون مهمتها أسهل. لن تبدو غريبة مثلها هكذا عن المكان.

استدارت عائدة إلى السيارة التي كانت لا تزال في انتظارها. حين وصلت إلى الفيلا، لم ترنّ الجرس، فتحت الباب بمفتاحها الخاص، لأن نورا معتادة على الخروج حين تخبرها هي أنها ستتأخر. دخلت فسمعت صوت كريم آتياً من الشرفة، اتجهت إلى هناك لتراه جالساً مع نورا يتشاركان حديثاً قطعه وصولها. غادرت نورا المكان بسرعة، فيما أخبرها كريم أنه عاد للاطمئنان عليها، لأنها بدت متوترة صباحاً، فلم يجدها.

جلست تستمع إليه يتكلم طويلاً من دون أن تسمع فعلياً أياً من كلماته، فقط تتابعه متظاهرة بالإنصات محاولة أن ترسم ابتسامتها الدائمة. انتظرت بصبر حتى انتهت زيارته، فقصدت غرفة مكتبها. أغلقت الباب عليها، أخرجت ألبوم الصور وأخذت تتأمل صورها القديمة: واحدة وهي طفلة بالزي الرسمي

لمدرستها "رمسيس كولدج"، وأخرى ترتدي فيها ثوب سباحة يكشف معظم جسدها الممشوق وهي في العشرين من عمرها، وثالثة في الستينات مع أبويها في رحلة إلى إنجلترا. مرت بباقي الصور سريعاً، وعندما وصلت إلى صورها الأحدث، طوت الألبوم. وهي تغادر الغرفة تحاشت النظر في المرآة المجاورة للباب.

لم تسأل نورا عن سبب جلوسها مع كريم، ولم تنهرها لسماحها له بالدخول في غيابها، فقط طلبت منها أن تسافر معها بسرعة إلى شاليه الساحل الشمالي. لم تحمل سوى حقيبة يدها التي التقطتها بسرعة وهي تسحب نورا وراءها.

كانت تقود على طريق مصر- إسكندرية الصحراوي بسرعة كبيرة وهي تدندن، من جديد، بكلمات أغنية نجاة. أحست بخفة لم تشعر بها منذ سنوات، عادت شابة جميلة تزهو بحسنها والعيون التي تلاحقها أينما ذهبت، ارتفع صوتها أكثر وزادت من سرعة سيارتها. يلسع الهواء البارد وجهها فلا تنتبه، تسألها نورا عن سبب السفر المفاجئ فلا تردّ عليها، وفجأة لم تستطع التحكم في عجلة القيادة، اختلّ توازن السيارة منها، ثم لم تعد واعية بالعالم من حولها، يأتيها فقط صوت أنين مجروح، طنين يكاد يشقّ رأسها، وضجة تغلف كل شيء.

نوفمبر ٢٠١٠

امرأة أخرى

قررت نجوى أن تشتري هدية لصديقتها القديمة سلوى وهي في طريقها لزيارتها! استيقظت مبكرةً كعادتها، حريصة على عدم إيقاظ زوجها المستغرق بجوارها في نوم عميق. خرجت من غرفتهما بهدوء، فتحت باب الشرفة، ووقفت تستمتع بلسعة البرد المنعشة في الصباح. رأت السماء أكثر زرقة من كل يوم، وخُيِّل إليها أن شجرة البونسيانا التي تطل عليها شرفتها، أجمل من عادتها. فكرت أن شارعهم جميل بالرغم من ضيقه النسبي، يكفي أن به ثلاث شجرات، إحداها، لحسن الحظ، أسفل شرفتها مباشرة.

تمنت لو تظل مستمتعة بهذا الجو المنعش في الشرفة حتى الضحى. قالت في سرّها إنها ستحاول، بدايةً من الغد، تخصيص وقت تقضيه وحدها هنا يومياً بمجرد عودتها من توصيل طفليها إلى مدرستهما. جهزّت الولدين على عجل، وتناولت إفطاراً سريعاً معهما، قبل أن تخرج بهما وهي تحمل حقيبة الأصغر بدلاً منه.

أمام المدرسة، أخبرت الحارس أنها قد تتأخر قليلاً اليوم، ثم قادت سيارتها الصغيرة في الشوارع المجاورة حتى يقترب موعدها الصباحي في منزل سلوى التي لم ترها منذ سنوات. خافت فجأة من نفاد الوقود، فارتأت ركن السيارة في أقرب مكان مناسب تصادفه. ركنتها بصعوبة وراحت تتسكع في الشوارع بلا هدف. معظم المحال لم تفتح أبوابها بعد، مما حرمها من هوايتها في التفرج على ما يُعرض في "الفيترينات". تذكرت أمر الهدية، وبعد تردد، قررت أن تشتري باقة زهور.

وبما أن محال بيع الزهور لا بد مغلقة بدورها، واصلت السير حريصة على إلقاء نظرة إلى ساعة يدها، كل دقائق عدة.

بدأت تتوتر. إذ لم يسبق لها أن تسكعت هكذا منذ سنوات. أحستّ كأن الناس في الشارع ينظرون إليها، ويعرفون أنها تسير بلا وجهة، فقط لقتل الوقت. لا تعرف لمَ خجلت من هذا، على رغم أن المشي والتسكع في الشوارع بالساعات كانا هوايتها في الماضي.

اعتادت أن تمشي لمسافات طويلة مع سلوى أيام الجامعة. في مشوار العودة إلى البيت تسير بجوارها حتى توصلها إلى بيت أهلها في الدقي بالقرب من كوبري الجلاء، ثم تواصل هي سيرها، مروراً بدار الأوبرا، ثم كوبري قصر النيل، وشوارع وسط البلد حتى تصل إلى بيت أسرتها في عابدين.

الآن نادراً ما تمارس هذه الهواية، بل نادراً ما تجد الوقت لالتقاط أنفاسها، على رغم أنها لا تعمل. تستيقظ مبكرةً، تجهز طفليها للمدرسة ثم تأخذهما إليها لعدم قدرتها هي وزوجها على دفع مصاريف "الباص" لطفلين. تعود لطهو طعام الغداء وترتيب الشقة، ثم تنزل من جديد لإحضار الولدين. فرحت عندما ترك لها زوجها سيارتهما الصغيرة مقابل أن تتحمل هي مسؤولية هذا المشوار. أحبّت القيادة في البداية، قبل أن تتحول المسألة عبئاً لا يُحتمل، ترجع من توصيلهما لتجد زوجها تناول إفطاره وغادر إلى عمل لا يعود منه إلا في المساء، مرهقاً راغباً في النوم.

عاشت غارقة في الدوامة ذاتها من دون أن تنتبه لها، حتى جاءها صوت صديقتها القديمة عبر الهاتف، منتعشاً باحثاً عن وصل ما انقطع، ولافتاً نظرها إلى أن هناك من بين معارفها من يعيشون على نحو آخر. صرخت من الفرحة غير مصدّقة أنها تستمع إلى صوت سلوى من جديد. جميلة الكلية التي تشبه مديحة كامل، بدت من نبرة الصوت الأريستوقراطية الجديدة عليها كأنها تعيش في كوكب آخر، مخملي، مماثل لما يظهر في إعلانات التلفزيون، ومجلاّت الموضة.

تدفقت الكلمات من فم نجوى، مذكّرةً صديقتها بمواقف طريفة جمعتهما، حكت لها بسرعة خلاصة ما تعرفه عن رفيقات الدفعة. وعندما سألتها عن عنوانها بعدما اتفقتا على اللقاء هناك، فوجئت قليلاً بالحي الفخم التي تسكن فيه سلوى. أنهت المكالمة، واتجهت تلقائيا نحو دولاب ملابسها. تفحصت

الملابس الموجودة فيه بحثاً عن فستان مناسب. كل فساتينها المفضلة ضاقت عليها ولم تعد مواكبة للموضة. وقفت أمام مرآة الدولاب تتأمل جسدها، وبشرتها المرهقة، والتجاعيد الخفيفة أسفل عينيها.

أدارت ظهرها للدولاب، وخطت نحو المطبخ. انشغلت لمدة ساعة في إعداد كعكة اسفنجية على رغم أن لديها ما يكفي من الكعك والحلوى. تنسى نفسها مع رائحة الفانيليا، وإحساس السكّر وهو يذوب في البيض واللبن. تركت الكعكة تنضج في الفرن، وانهمكت في غسل الأطباق المتسخة المتروكة في الحوض منذ وجبة الغداء. نظّفت طاولة المطبخ، ووقفت تدندن لحن أغنية قديمة وهي تهز رأسها إعجاباً بعذوبة صوتها. أخرجت الكعكة من الفرن وتركتها تبرد وذهبت لمساعدة الولدين في استذكار دروسهما، ولمّا ناما، كانت قد نسيت أمر الكعكة. أوت إلى فراشها من دون أن تزيّنها أو تضعها في الثلاجة.

الآن في هذا البرد الصباحي المنعش، عليها أن تختار باقة زهور مناسبة. تذكرت أن سلوى كانت تحب "عصفور الجنّة"، فقررت أن تشتري لها باقة منها. لكنها وقفت في المحل حائرة بين القرنفل الذي تفضله هي، والجلاديولس الذي رأته مبهجاً على نحو مفاجئ. لم تقدر على مقاومة إغراء القرنفل لها من قبل. لو كان في جيبها آخر جنيهات تملكها، ورأته يطل عبر زجاج أي محل زهور، لاتجهت لشرائه فوراً وخرجت مفلسة.

فكرّت أن ما تفضله هي غير مهم. الأهم أن تبلّغ سلوى أنها لا تزال تتذكر حبّها لعصفور الجنّة. ستكون لمسة لطيفة بلا شك. تابعها البائع مندهشاً من ترددها، من غير أن ينطق بكلمة واحدة، فقط رسم ابتسامة مهذبة على وجهه، في حين أخذت هي تنقّل بصرها بين القرنفل والجلاديولس وعصفور الجنّة. اقترح أن ينسّق لها تشكيلة على ذوقه، فأشارت بحزم إلى القرنفل الوردي، هكذا غالبت ترددها وحسمت الأمر.

خرجت من المحل ممسكةً بالقرنفل في يدها اليمنى، وهي تحاول إقناع نفسها بأنها اختارت الخيار الأفضل. قالت في سرها إن الهدية يجب أن تعبّر عن ذوق مقدّمها، وهي لا ترى أروع من هذه الزهرة الأنيقة. إن كانت تتذكر أن عصفور الجنّة هي زهرة سلوى المفضلة، فعلى سلوى أن تتذكر أن القرنفل زهرتها الوحيدة وأجمل الأشياء في العالم من وجهة نظرها. وكونها أحضرت لسلوى باقة قرنفل، يعني أنها أهدت إليها أجمل شيء ممكن. ابتسمت لنفسها في الشارع سعيدة بالطريقة التي بررت بها الأمر.

رددت، بصوت خافت، مقطعاً من أغنية محمد فوزي التي تحبّها متجاهلةً نظرات المارة في الشارع: "آه م القرنفل... دي ريحته تقلق، ساحر ويسحر، قاتل ويقتل، يجعل حبيبك هواه مشعلل، ويكيد عزولك ويبات مقلقل". نقلت لها الأغنية عدوى الفرح فواصلت تسكعها الصباحي منتعشة.

غير أن خاطراً مفاجئاً مرّ ببالها وضايقها، هو أن سلوى نادراً ما اهتمت، في الماضي، بما تهواه هي، فلماذا ستتذكر

حبّها للقرنفل الآن؟ كان زفافها آخر مناسبة جمعتها بسلوى التي اعترضت وقتها حين علمت أن "بوكيه" العرس من القرنفل الأبيض. سخرت بشدة من ذوق نجوى، واقترحت عليها آخر من زهرة الكلا، أو حتى من الورود البيضاء غير المتفتحة بعد والمحاطة ببراعمها الخضراء.

تصرفت بحدة كأن تصميم نجوى على رأيها إهانة موجهة إليها شخصياً. وظلت طوال العرس متجهمة بلا مبرّر، ترمق صديقتها بنظرات حادة، متحاشيةً النظر إلى القرنفل في يدها. لذا ظلت نجوى تتذكّرها، خلال السنوات التالية، بوجه متجهم ونظرة مغتاظة.

أخذت المحال تفتح أبوابها واحداً بعد الآخر، العمّال ينظّفون أرضيات المطاعم في شارع جامعة الدول العربية، والشمس بدأت تعلن حضورها، وسلوى تحمل زهورها وتتحرك ببطء وهي تقاوم وساوس الكآبة الزاحفة نحو قلبها على مهل. فجأةً، بدا لها منظر الشارع لا يحتمل، السيارات سرعتها مدوّخة، المارة وجوههم كالحة، والجو الذي أحسّته صحواً في الصباح المبكر استحال كابياً في عينيها على رغم سطوع الشمس.

عبرت الشارع بصعوبة إلى الجزيرة في منتصفه، اتجهت إلى أحد المقاعد الخشبية المثبّتة في الأرض وجلست وهي لا تزال ممسكة بزهور قرنفل فشلت للمرة الأولى في بعث البهجة في نفسها. بعد دقائق، نظرت في ساعتها مرة أخرى وانتفضت قائمة. موعدها مع سلوى اقترب جداً، وعليها أن تتحرك الآن.

سارت من جديد في الشوارع التي بدأت تزداد صخباً. خطوتها اكتسبت مزيداً من الثقة هذه المرة، إذ تعرف وجهتها، ولا تتسكع بلا هدف كما كانت قبل قليل. نسمة الضحى تداعب وجهها، وشعرها الذي يغطي الكتفين بالكاد يتماوج بنعومة، بينما تحاول هي أن تتخيل هل تغيّرت سلوى أم لا تزال على جمالها وحيويتها.

ارتقت السلّم صاعدة كوبري ١٥ مايو في طريقها من المهندسين إلى الزمالك، خطت فوق رصيف الكوبري وهي تنظر، بين وقت وآخر، إلى مياه النيل بالأسفل. حين نزلت في الجهة الأخرى، وقفت تتأمل المياه الساكنة بتركيز أكبر.

كان ثمة طيور بيضاء فوق شجرة كافور معمّرة، ومشتل زهور ونباتات زينة في حضن النهر. بدت السماء صافية الزرقة والمارّون في الشارع كأنما ذاهبون إلى مواعيد تحدّد مصير العالم.

جلست إلى مقعد رخامي مثبّت على الرصيف. تركت باقة القرنفل ترتاح بجوارها بإهمال، وشردت في تأمل نباتات المشتل. فكرت أنها قبل عشر سنين كانت ستدخله بلا أدنى محاولة لمقاومة رغبتها في ذلك. ظلّت على شرودها لفترة. استراحت لجلستها الهادئة من دون أن تفكر في أي شيء آخر.

رنّ هاتفها المحمول أكثر من مرة فلم تردّ. ميّزت الرنّة التي خصصتها لسلوى بعد مكالمتهما الأخيرة. ابتسمت وهي تتخيل ما الذي ستظنّه صديقتها. استمعت للرنّة مرّات ومرات من دون أن تخرج عن شرودها. في النهاية، أغلقت الهاتف.

ألقت نظرة أخيرة على زهر القرنفل الموضوع بجوارها فوق المقعد الرخامي، ابتسمت له كما يبتسم المرء لصديق عزيز. وحاولت أن تتذكّر أين ركنت سيارتها بالضبط.

يوليو ٢٠١١

حياة زجاجية

كانت العربة تشق طريقها بالكاد وسط المياه، فيما تتجمع زخات المطر على زجاجها الأمامي لتتحول إلى خيوط متداخلة لا تقوى المساحات على التخلص منها.

حولت بصري عن خيوط الماء.. التقت عيناي بعيني السائق.. بدت لي نظرته أشبه بنظرة مجنون فسحبت عيني بسرعة وركزت انتباهي مرة أخرى على خيوط الماء المنزلقة على زجاج السيارة. كان يقود بيد واحدة بينما تتحرك يده الأخرى بعصبية بحثا عن شيء ما في تابلوه السيارة. ثم لا يلبث أن يكف عن ذلك ليضعها على فمه أو يضغط بها على جبهته بقوة. بعد لحظات بدأ جسده يهتز بطريقة غريبة وبين الحين والآخر كان يرمقني بنظرة نارية عبر المرآة..

احتمال أن يكون الرجل مجنونا أو تحت تأثير مخدر قوي أرعبني. اكتشفت فجأة أن الرعب الحقيقي لا يكمن في تعرض أحدنا لخطر عدو شرس ذي قلب ميت إنما في أن نقع تحت مخالب مجنون لا يستطيع السيطرة على نفسه. فقدان العقل

يغدو مفزعا في مثل تلك الحالات، رغم أننا لا نفطن أصلا إلي وجوده فيما عداها.

انتبهت من أفكاري على زخات متصاعدة من المطر وعلى همهمات متألمة تصدر عن السائق الذي طلبت منه تهدئة سرعته فسمعته يخبرني بأن الأمر برمته خرج من يده. كانت نظرته عبر المرآة تحمل ما يشبه الاستغاثة فانهرت تماما فرغم خوفي في اللحظات السابقة من بطشه بي إلا أن جزءا بداخلي كان يرتكن إلي الراحة من قوة وثبات افترضتهما فيه شأن افتراضاتنا الساذجة عن كل الخاطفين.

كنت أظن أنه مهما فعل سيكون أكثر أمنا من الطبيعة التي كشرت عن أنيابها لكن استغاثته حطمت آخر أمل لدي ونبهتني إلي أننا معا تحت رحمة قوي مجهولة.

أبصرت عرقا غزيرا يتفصد علي وجه الرجل فيما كان يلعن ويسب وهو ينظر بهلع إلى الطريق المحاط بأشجار كثيفة من الناحيتين وقد أخذ يضيق لدرجة أصبحت تعوق حركة السيارة.

بدأت ارتعش بشدة وقبل ان اغيب تماما عن الوعي أطاحت يد عملاقة بجسدي نصف المغيب إلى خارج العربة فتدحرج عدة مرات على أرضية حديقة تشبه الدغل تحيط بالفيلا شبه المهجورة المجاورة لمنزلي.

أشواك حادة خدشت وجهي وأجزاء متفرقة من جسدي وأحسست بدماء طازجة تنزف مني في أكثر من موضع ثم بدأ وعيي يعود إليّ.. ثمة كلب كان ينبح في مكان قريب بصوت

مجروح وكائنات سوداء تشبه القطط كانت تركض بجواري مصطدمة بجسدي.

همهمة غامضة كانت تصدر من داخل الفيللا.. تحاملت على نفسي وتحركت باتجاه الدرجات الأربع المؤدية إلى الداخل، دفعت الباب الموارب ودخلت بوجل غير معتادة على خطوتي العرجاء.. كل شيء كان مختلفاً عن الأجواء الخارجية، مدفأة قديمة محاطة بطوب وردي اللون تتأجج فيها النيران كانت تتصدر المكان وبجوارها كرسي هزاز مازال يتأرجح ببطء، كأن شخصاً ما قد غادره تواً.. كتبة كبيرة وفوتيهات عدة تناثرت هنا وهناك والحوائط بأكملها كانت مكسوة بمرايا براقة انعكست عليها صور المدفأة بنيرانها والفوتيهات والكرسي الهزاز وكل ما بالبهو إلى حيث لم أجد أثراً لجسدي على صفحات تلك المرايا الملعونة فانطلقت في صراخ يائس.

***

لم أعرف أبداً من الذي نقلني إلى بيتي لأجد نفسي في الصباح بين اليقظة والنوم على فراشي الدافئ.. كل القوانين معطلة والأشياء ليست كما أعرفها بل جد مختلفة.. الغرفة مغلفة بإضاءة حمراء ملتهبة، وقطع الأثاث في غير مواضعها المنطقية.. الباب مفتوح على الردهة التي أصبحت أضيق من حقيقتها ومنها يبين شيش باب الشرفة، وهو يتموج تموجات شديدة الاهتزاز.

وحدها نجفة السقف الثابتة على شكل غصن شجرة به ثلاث ورقات تحمل كل منها لمبة، وحدها تلك النجفة بدت كأنها تتحداني بوجه داعر.. تقترب مني رويداً رويداً، تكاد تصطدم بوجهي قبل أن ترتفع فجأة لتعاود كرتها من جديد.

ثمة أصوات كانت تتزاحم من حولي في أرجاء البيت كما لو أنها استغنت عن أصحابها وتحولت إلى محض صوت يتجول وحده مبيناً مدى هشاشة الأجساد.

عندما أفقت تعرفت على الحياة كما آلفها، افتقدت حالة الاهتزاز المقبضة التي عايشتها وضايقني أنني لن أعرف ما إذا كان ما مررت به حلماً أم أي شيء آخر..

حاولت أن أتناسى لكن عينيّ السائق ظلتا تلحان عليّ. فتحت باب الشرفة وألقيت نظرة على الجو بالخارج.. رأيت الشمس متوهجة والشوارع نظيفة وجافة كأن ماء المطر لم يمسسها منذ زمن، وكالعادة قبعت الفيللا شبه المهجورة المواجهة لشرفتي مستسلمة للصمت التام، فعلى عكس البيوت المجاورة تتواءم تلك الفيللا مع الظلام والسكون: لا أضواء ليلية، لا أصوات تنبعث منها، لا مشاجرات، لا شيء على الإطلاق.

اعتدت أن أمر بها كل صباح أثناء خروجي للعمل، كما تحلو لي مراقبتها ليلاً للتأكد من السكون الرهيب الذي يغمرها. ما بين السادسة والسابعة مساء تظهر يومياً المرأة النحيلة ذات النظرة الحولاء، كأنما تبحث عن شيء ما بـ"الفراندة". تسير جيئة وذهاباً عدة مرات قبل أن تجلس إلى كرسي البامبو ذي الوسائد

المتداخلة الألوان مسندة مرفقيها إلى الطاولة المستديرة، وتظل على جلستها لبعض الوقت ونظرها مشدود إلى مدخل الحديقة الشبيهة بأحراش مصغرة تحتاج إلى من يهذبها، ثم لا تلبث أن تلتجئ إلي داخل الفيلا بخطوات مسرعة مرتبكة.

تبدو المرأة بملابسها وتصفيفة شعرها كشخصية خرجت لتوها من كتاب مصور يتناول فترة الخمسينيات من القرن العشرين. وجهها خالٍ من التعبيرات تقريبا ونظرتها الحولاء تسلمني إلي الانقباض.

أتساءل حين أحملق فيها: هل ترى عيناها العالم كما تراه عيناي بالضبط؟ وهل نرى كلنا الأشياء حولنا بالكيفية نفسها؟ ماذا لو كانت هناك اختلافات طفيفة جدا من شخص لآخر قد يؤدي تراكمها إلي نتائج مفزعة؟ ماذا لو كانت هذه المرأة مجرد وهم؟ لماذا لا أنادي عليها بصوت مسموع، ربما يبدر منها ما يدل علي أنها هناك؟

لكنني دائماً ما أقف عند هذه النقطة ولا أحاول المضي قدماً في تساؤلاتي المرهقة، تحاصرني الملامح الحادة والنظرة الزجاجية لامرأة في الخمسين من عمرها غير منشغلة إلا بما في داخلها فأرتب شقتي وأنظف الزهور البلاستيكية من التراب المتراكم عليها، وأتأكد من أن قطع الأثاث في مواضعها تماما ومن وقت لآخر أتسلى بمراقبة الوقت الذي يتفتت أمامي إلى قطع مهشمة متناهية الصغر يصعب ضمها إلى بعضها البعض، لكنها حين تقرر الالتئام تضغطني بين حوافها المدببة.

أراقب الوقت الذي لا يأبه بأحد بل يظل مسدراً في غيه مفتتاً الجميع إلى شظايا صغيرة تتشابه معه وتتحول مثله إلى غبار متطاير في الهواء، فأصل بحدسي إلى أنه مجرد شخص بالغ الوحدة والكآبة يبحث عن أشياء لكنه لا يتماهى معهم إلا بابتلاعهم في أحشائه الوسيعة، ومن ثم أقرر من تلقاء نفسي ان أسارع باتجاهي نحوه، أن انهي قصة وجودي على نحو رائع يتماشى مع رؤيتي المتضخمة عن ذاتي، وعلى الرغم من هذا كنت أجبن في اللحظات الأخيرة وأتشاغل بتفاصيل صغيرة تمسك بتلابيبي.. أذهب إلى العمل، وأتسكع في الشوارع، وأتأمل أعماقي في الأماكن الصاخبة، وقبل كل ذلك كنت أواصل مراقبتي للمرأة بالفيللا المجاورة.

لا أذكر الآن متى اصطدمتُ بالنظرة الحولاء لأول مرة، لكنها كانت لحظة استثنائية في حياتي الراكدة. بدت لي كرسالة مبهمة تحتاج إلى من يفك شفرتها كما بدا لي انحراف إحدى عينيَ المرأة كمؤشر على خلل رهيب اعترى روح العالم.

***

كانت المرأة النحيلة منهمكة في عمل شيء ما بشرفتها، حين انبعثت أنة مكتومة من الداخل فانتفضت ورمت لي نظرة سريعة قبل أن تستدير نحو مصدر الصوت. انتفاضتها المرتعبة حركت فضولي.

صحوت مبكراً في اليوم التالي وتسللت للبحث في أكياس قمامتها إلا أنني لم أجد فيها ما يلفت النظر. فقط مجرد ضمادات قطنية مدماة وأمبولات زجاجية مكشوطة العنق وبقع

دماء جافة تغطي كل شيء. لم يكن ثمة بواقي طعام أو زجاجات عصير فارغة أو حتى قشر فاكهة، ولولا المرأة ذات النظرة الحولاء وصوت الأنين الذي بدأ يتصاعد بشدة لاقتنعت بأن هذا المنزل مهجور تماما.

الأنين المتزايد جذبني ناحيته ولدهشتي وجدت الباب مفتوحاً ووجدتني في البهو نفسه ذي المدفأة القديمة والكرسي الهزاز والفوتيهات المتناثرة، لكن المرايا بدت وكأنها مصمتة تماماً.. لم تعكس أياً من هذه الأشياء، خطوت في الردهة التي ينبع منها الأنين وفتحت باب الحجرة.

رأيت المرأة النحيلة ترقد بجوار جثة رجل واضعة يدها فوق صدره، فيما خيط غزير من الدماء الداكنة ينساب على الأرضية باتجاه الباب.. تقدمت ببطء ودون أن أحتاط للأمر، واجهتني صورتي في مرآة صغيرة بجوار الفراش. كانت عيناي مركزتين على نظرة حولاء وجسد نحيل يتحديانني بشراسة قبل أن أغرق في ظلام دامس.

مايو ٢٠٠٢

جنيّات النيل

يبدأ كل شيء في توقيت صلاة الجمعة!

تسمع المرأة الساكنة في البيت الحجري في حضن النيل، تماماً عند المرسى، أصواتاً منغمة غامضة. في البدء ظنتها أغنيات تعرفها، ثم أدركت أنها أشبه بكلمات مغناة بلغة لا تفهمها. تخرج من بيتها فتلمح ما يشبه الدخان الأبيض يتكاثف بين أشجار الكافور المصفرة أمام البيت. ليس دخاناً، لو شئنا الدقة، إنما شيء أبيض أشبه بسحب طولية تتراقص وتتعانق فيما بينها. حين تمعن النظر ترى الأشكال الهلامية البيضاء تستحيل أطيافاً، كأنما لأجساد أنثوية تدور متعانقة في غنج. تشف الأصوات وتصبح أكثر نعومة وإغواء. وتتمايل الأطياف الأنثوية على إيقاعات غير محسوسة محولةً الوجود خارجها إلى صمت تام. صمت ينصت إلى هذه الموسيقى المجهولة المصدر.

المرأة في البيت الحجري اسمها زينات، غير أنها حين يتكرر هذا الطقس أمامها كل أسبوع تكاد تنسى اسمها وأمها

وأباها، وحتى زوجها الذي تعرف أنه سيتهمها بالجنون لو حكت له عمّا تراه.

في البدء شعرت بالخوف. خوف بدائي عميق يسكنها منذ الأزل. هي دائما خائفة، ثم تبدأ تالياً في اختراع الأسباب. فيما بعد انقلب خوفها فضولاً، ومن الفضول وُلدت الرغبة. رغبة مذلة يائسة في الالتحام بهذه الأجساد النورانية الشفافة.

قالت هنّ جنيّات النهر، وقد سئمن حياتهن في الأعماق. تتذكر أن أمها، المتوفاة الآن، كانت عارضت أن يسكن زوج ابنتها قريباً هكذا من النيل. قالت إن لجنيّاته حرمة لا بد أن تُحترم. لم ترَ أي جنيّة من قبل، ولم يخبرها أيٍ من معارفها أنه رأى إحداهن، لكنها تعرف أنهن جميلات في الغالب، بشعر أسود بالغ الطول، وعيون مشقوقة طولياً ذات لمعة متوهجة، وقادرات على الحلول في أجساد بشرية.

تعرف ذلك معرفتها أن الشمس هي الشمس، والقمر هو القمر، والليل هو الليل.

تمعن النظر في الأطياف الأنثوية أمامها، فيُخيل إليها أنها تتحول إلى أجساد من لحم ودم، لكن ببشرة ناعمة مصقولة تكاد تكشف، من فرط شفافيتها، عمّا تحتها. يرتفع صوت الغناء فجأة ويتسارع الرقص. قبل أن يختفي كل شيء ويطبق الصمت من جديد. لحظتها تعود لتسمع حفيف أوراق الشجر، وصوت خطيب الجمعة يعلو بلا مقدمات منهياً خطبته.

أيقنت أن هذا سرها الذي لا ينبغي أن تخبر به أحداً. بدأت تنتظرهن في الخلاء أمام البيت في الموعد نفسه من كل أسبوع. باتت تخشى أن ترمي أي شيء في المساحات بين أشجار الكافور، اعتادت أن تكنس الأرض هناك وترشها بالمياه يومياً، قبل أن تقرر إضافة ماء الورد للمياه المرشوشة.

فكرت أن تسأل المراكبي إن كان رأى إحدى جنيّات النيل من قبل، غير أنها خافت أن يستدرجها في الحديث، فتضطر لحكي ما لا ترغب في حكيه. لا تثق في قدرتها على كتم أي سر. ما أن يسألها أحدهم سؤالاً مباشراً حتى تجيب بكل التفاصيل، المهم منها والهامشي.

تنهي زوجتي أعمالها ببطء، وتحضّر طعام الغداء، ثم تجلس بهدوء إلى المصطبة أمام البيت متسلية بمراقبة المنتظرين بجوار العرمس، وهي ترتق ثوباً قديماً، أو تنقي الأرز، وتقطع الخضر لطبخة اليوم التالي.

يتهلل وجهها المغمور بالتجاعيد والغضون حين ترى المراكبي. أتابعها عبر النافذة من مكاني فوق الفراش حيث أرقد باستمرار. في العصاري لا يكون في عجلة من أمره، يقف ليتبادل معها كلمات قليلة باهتمام. يحكي لها عن ابنه الذي يرفض مساعدته في عمله، وزوجته العجوز الماهرة في الحياكة. تعطيه شربة ماء، أو كيساً مليئاً بخضر وأعشاب من تلك التي تزرعها في الفسحة الممتدة بين أشجار الكافور وشجرة التوت الضخمة.

يصل إلى ضفتنا مرتين يومياً. صباحاً، حيث ينتظره، قرب المرسى، الراغبون في العبور إلى الضفة الأخرى، ومساءً كي يعيد من ذهبوا في الصباح ويأخذ من كانوا جاءوا معه. في أحيان كثيرة، يأتي مرة ثالثة حين تخفت حرارة الجو في العصاري، أو حتى في منتصف النهار حين تتوسط الشمس صفحة السماء، إذا تجمع عدد ممن يرغبون في عبور النهر. يقفون منتظرين بلا ملل في ظل أشجار الكافور إلى أن يقرر المجيء لنقلهم.

في الماضي البعيد، قبل انتقال المرسى لجوار بيتنا، كنا نعيش في عزلة تامة. لا أحد كان يقترب من البقعة التي نسكنها. في بدايات زواجنا بكت زوجتي كثيراً، بإيعاز من أمها، محاولةً إقناعي بالانتقال إلى بيت آخر في البلدة نفسها، لا على أطرافها هكذا في حضن النيل. كنت أتأخر معظم الليالي غير مبالٍ بخوفها من النيل والظلام المتربص بها خارج البيت.

في أيام الجمع والعطلات كنت أيضاً لا أبقى في البيت. لم تفهم أبداً، كيف لشخص نشأ مثلي في المدينة، أن يهجرها إلى الريف، وإلى هذه البقعة المعزولة بالذات. إنعام نفسها لم تفهم ذلك.

أخبرتني زوجتي ذات مرة عن أصوات تسمعها، في غيابي، آتية من النهر ونباتات الحلفا المحيطة به. أكدت أنها للجنيّات اللائي يبدون كأنما يلعبن في الماء بأصوات لاهية مجلجلة، غير أنها عادت لتنكر ذلك. كانت مقتنعة أن قرب البيت لهذه الدرجة من النهر ينطوي على خطيئة رهيبة. لم

تردعها سخريتي منها، ولا اتهامي لها بالجنون، لأن مخاوفها كانت أكبر من أن تقمع.

في ذلك اليوم البعيد الذي عدت لأجدها فيه غائبة عن الوعي بين أشجار الكافور، لم أصدقها، بل وضربتها رافضاً الاستماع لتبريراتها. في الحقيقة، لم يكن هناك أي تبريرات، حكت أشياءً غريبة عن أطياف تظهر لها بين أشجار الكافور. لم تعد بعدها أبداً لما كانت عليه. بقيت أرعاها في البيت لعدة أسابيع، كنت أراها تحوم حول أشجار الكافور. وتجلس معلقةً بصرها بها. وفي آخر النهار ترقد في فراشها مهمومة بلا كلمة واحدة.

حتى حملها وميلاد ابننا بعد هذه الواقعة بأقل من سنة لم يُعدل مزاجها ويعيدها لسابق عهدها. تعلقت به، وجعلته مركز حياتها، إلا أنها ظلت على حزنها وانتظارها الصامت.

لم تعد تغادر البيت إلى أي مكان: لا تذهب إلى السوق، ولا تخرج أبعد من الخلاء المحيط بالبيت وأشجار الكافور، كأنها تحافظ على عهد قطعته على نفسها.

اعتمدت على المراكبي في مدها بما يحتاج إليه البيت، تعطيه النقود في المساء، ليبتاع لها ما تريده من فواكه ولحوم ويحضره معه من الضفة الأخرى صباحاً. أصبح بمثابة الحبل السري الذي يربطها بالحياة في الخارج، تماماً مثلما أصبحت إنعام بالنسبة لها فيما بعد.

المرأة الساكنة في البيت الحجري في حضن النيل.. تلك التي تدعى زينات، توجهت ذات جمعة، كعادتها، مبكراً إلى

السوق التي تتوسط البلدة، عادة لا يستغرق هذا المشوار أكثر من ساعتين، منهما نصف ساعة للوصول إليها، ومثلها للعودة منها. لكنها في هذا اليوم وجدت أن من سبقتها حصلن على الفواكه والخضر الطازجة، وتركن ما لا يصلح لشيء. تروت في الاختيار والمفاضلة حتى اشترت ما يرضيها جزئياً، غير أنها حين وصلت إلى محل الجزارة وجدته مغلقاً، أخبرها صاحب المقهى المجاور أنه سيفتح بعد صلاة الجمعة، فقررت الانتظار. وضعت سبت مشترواتها بجوارها، وجلست على البسطة الرخامية أمامه. أخذت تلم أطراف ثوبها الأسود الطويل، وتداري ضفيرتيها السوداوين بطرحتها الشيفون الشفافة، وتناست مؤقتاً، الأطياف البيضاء المتراقصة بين أشجار الكافور. لو لم تشتر اللحم، سيثور زوجها. اعتادت على عصبيته، لكنها تكره صوته الأجش عندما يعلو موبخاً إياها.

بعد انتهاء الصلاة مباشرة جاء الجزار. اشترت منه لحم الضأن الذي يفضله زوجها، وغادرت مسرعة. تعرف أنهن غادرن لا ريب، لكنها ترغب فقط في الوصول إلى هناك، كأنما سيعرفن بشوقها لرؤيتهن. خطت مسرعة فوق الطريق الترابي الضيق الواصل بين البلدة والمكان حيث بيتها، الطريق تحده حقول ممتدة مزروعة بالذرة عن يساره، وحقول أخرى مزروعة بالخضر عن يمينه، مساحات واسعة يليها النيل، وعلى الضفة الأخرى منه بساتين النخيل والبرتقال والعنب. تكاد تتعثر في طرف ثوبها، الحرارة مرتفعة،

وملابسها الثقيلة تزيد من الحر. الطريق مهجور تماماً وكذلك الحقول على جانبيه، يغادرها الفلاحون بسرعة للحاق بالصلاة، ولا يعودون لها إلا عصراً حين يعتدل الجو.

منذ طفولتها تخشى حقول الذرة، لطالما حذرتها أمها من السير بجوارها، سألت إن كان بها جنيّات. فردت الأم بصوت يشبه النعيق: بل أسوأ. رجال.

شرحتْ لها أن الرجال يختبئون في حقول الذرة لاستدراج الفتيات والنساء المارات وإيذائهن. وقتذاك لم تعرف نوعية هذا الإيذاء، لكنها خرجتْ بمعلومة أن الرجال أسوأ من الجنيّات.

فجأة بينما تواصل التعثر في جلبابها، وهي تحمل سبت مشترواتها الثقيل، حل ذلك الصمت الذي تألفه، صمت تكاد معه أن تسمع صوت أفكارها. انتظرت أن يتكاثف الدخان الأبيض، وأن تنبثق لها الأجساد الأنثوية الراقصة، غير أن أياً من هذا لم يحدث. زاد الصمت، قبل أن ينبعث صوت مختلف عمّا اعتادته من أطيافها، كان أقرب إلى النحيب وتأوهات الألم. نظرت إلى حقل الفاصولياء عن يمينها، فوجدته ممتلئاً بنسوة يرتدين السواد، ورؤوسهن يتوجها شعر فاحم بالغ الطول. يقطعن نبتات الفاصولياء بزهورها البيضاء الصغيرة، وهن يولولن ثم يخبطن على رؤوسهن بأيديهن.

كان طقساً جنائزياً مخيفاً، ورغم ثقل حمولتها بدأت في الركض، ارتجف قلبها، وحاولت الصراخ فخرج صوتها ضعيفاً مبحوحاً. شعرت أن الطريق يطول أكثر من المعتاد. تعالى

الندب والنحيب، ورأت نبتات الفاصولياء وقد قُطّعت بكاملها، وتحولت إلى كومات صغيرة ملقاة بإهمال. كانت قد اقتربت من بيتها، ولمحت المراكبي يرسو بقاربه من بعيد، نادت باسمه بصوت أرادته قوياً واثقاً، ولدهشتها توقف كل شيء حين نطقت الاسم. عادت زقزقات الطيور على الأشجار القريبة، نباح كلب بعيد، وحفيف أوراق شجر يحركها هواء خفيف.

اتجهت نحو المرسى، كانت تتنفس بصوت مسموع ومتقطع. طلبت من المراكبي أن يساعدها في إنزال المِيّت من فوق رأسها. جلست على الأرض تلتقط أنفاسها. بعد قليل قامت ببطء متجهة نحو بيتها. دخلته بهدوء، فيما لحق بها المراكبي حاملاً المِيّت. تركه في وسط الصالة الضيقة، وعاد مسرعاً نحو المرسى. رقدت في فراشها مرتعشة. لأول مرة تشعر بالراحة، لأن زوجها يقضي معظم وقته خارج البيت في أماكن لا تعرفها، ولم تهتم يوماً أن تسأله عنها.

في الصباح جاءت إنعام!

أشعر بها بمجرد أن تدخل البيت. سمعت صوتها الذي لم تغيره السنوات. تضحك بصوت مرتفع وهي تحادث زوجتي. بدت سعيدة والكلمات تنطلق منها متتابعة بلا مسافات تفصلها. اعتدلتُ قليلاً في جلستي انتظاراً لدخولها، غير أنها تأخرت، لمحتها عبر الباب الموارب تحتضن زوجتي قبل أن تربت على كتفها وتعدل لها من وضع طرحتها الشيفون السوداء فوق

رأسها. اتجهتا معاً للجلوس إلى الكنبة التركي في الجهة الأخرى من الصالة، فغابتا عن مجال رؤيتي.

كانتا تتحادثان بصوت لم أتبين كلماته رغم عدم انخفاضه.

أفقت من نومي أبكر من المعتاد كوني أعرف أن هذا موعد قدوم إنعام. الخميس الأول من كل شهر. منذ لم أعد قادراً على الذهاب إليها، صارت هي من تأتيني في الموعد نفسه. وما أن تغادرني عائدةً إلى بلدتها البعيدة، حتى أعيش على أمل لقياها من جديد. صارت حياتي نوبات انتظار متواصلة لزياراتها. أشعر أحياناً أني أتلذذ بهذا الانتظار أكثر من لقائها المباشر. في الأيام القليلة التي تسبق زيارتها، أعد الساعات سعيداً بقرب موعدها. وحين أراها، أنسى كل شيء آخر، إلا أن فرحتي يداخلها بعض الحزن لمعرفتي أنها ستغادر كعادتها قبل حلول المساء.

لا تزال تتبادل الحديث مع زوجتي، كأنها أتت لزيارتها هي لا أنا. أفكر في مناداتها، غير أني أتراجع وأواصل انتظاري. أشعر أحياناً أن زوجتي تنتظر إنعام بلهفتي نفسها، غير أني لا أستطيع الجزم بأي شيء يخصها.. رأيتها منذ يومين، عبر النافذة المفتوحة دوماً، تربت بعطف على سيارة نقل البضائع القديمة المركونة بالخارج، وتتحسسها كأنما تتحسس شخصاً تحبه، قبل أن تغطيها حفاظاً عليها من الأمطار التي تنهمر منذ يومين، على الرغم من أنها طلبت مني بيعها مراراً في الماضي، قائلة إنها لا تطيق رؤيتها أمام البيت.

في الأيام التي تسبق موعد إنعام الشهري، تحرص زوجتي على الانتهاء من كل أعمال البيت التي تستغرق وقتاً طويلاً. ترتب المنزل، وتخبز ، وتغسل الملابس وتنشرها على الحبل الممدود بين شجرة التوت وشجرة الخروع. ثم تجلس فوق حجر الصوان بهدوء تحملق في الملابس، كمن يتابعها وهي تجف وتتماوج استجابةً لنسمات الهواء.

تكون ملابسها مبتلة بالكامل، لكنها لا تأبه بذلك، تظل في جلستها تحت الشمس حتى تجف الثياب التي ترتديها هي أيضاً. ولا تلتفت أبداً نحو النافذة التي أتابعها منها بينما أضطجع في رقدتي الدائمة فوق فراشي. حينما تمل تخطو بحركة شيخوختها البطيئة نحو النيل وتملأ الدلو البلاستيكي الأخضر بالماء. ينحني جذعها نحو اليمين استجابة لثقل الدلو الذي تحمله في يدها اليمنى. تتجه لسقي شتلات الطماطم والباذنجان المزروعة في البقعة الممتدة بين شجرة التوت وأشجار الكافور المجاورة لمرسى القارب.

منذ ضربتها، قبل سنوات طويلة، وهي تكاد لا تتبادل معي الكلام. حتى بعد مرضي لم يحن قلبها. أعوام عديدة مرت وأنا أرقد هكذا. أراقبها، وهي تتحرك ببطء، تنظر بلا تعبيرات، وتتمتم بكلمات لا أتبينها. أتساءل بيني وبين نفسي: إذا كانت ترفض النسيان بعد كل هذه السنوات، فلماذا لم تتركني كي تريحني من هذا الألم؟

أرفع عينيّ للسقف فألمح طيف ابننا مبتسماً بوداعة ترعبني، أديرهما إلى النافذة فأرى السماء بعيدة جداً. صارت

النافذة كل علاقتي بالعالم الخارجي، أصر على أن تفتحها زوجتي حتى في أوقات البرد والمطر. أنتظر منها أن تعترض، غير أنها تخيّب أملي وتظل على صمتها، تطيعني كأنما تجلدني بهذه الطاعة. أحيانا أنظر إليها فجأة فأضبطها تختلس النظر إليّ. حين تزورني إنعام أظل أستدرجها لمعرفة فيمَ تحدثها زوجتي؟ وهل تضحك معها وتتصرف مثل بقية الناس أم تظل على تجهمها وصمتها؟

تدخل إنعام أخيراً ضاحكةً، تنحني لتقبل جبيني، ثم تجلس إلى الكرسي على يسار سريري، تحكي الحكايات نفسها كل مرة، وعلى رغم هذا أراها طريفة وجديدة، كأنها تعيد خلقها من جديد. إلا أنها بدت اليوم مختلفة بالرغم من مرحها البادي، كانت كأنما تعوه به على حزن ما. رجوتها أن تأخذني إلى سيارة النقل المركونة أمام البيت، فابتسمت ولم تعلق. لأول مرة أراها بهذا الشرود. نظرتها وهي تغادرني أبصرتها في عيون كثيرة من قبل.. تلك العيون التي تعرف أنها لن تراك ثانية، فتهرب من عينيك ويحاول صاحبها أن يتكلم بحياد كأنه ينفض يديه منك.

المرأة الساكنة في البيت الحجري، تلك التي تدعى زينات، عرفت أن ما مرت به ما هو إلا عقاب، لأنها أخلفت موعدها الأسبوعي مع جنيّاتها الراقصات، تيقنت أنه مجرد تحذير بسيط. فرصة أذن، يليها العقاب الأكبر إن عاودت فعلتها، أو أقدمت على خطأ سواها. في الأسبوع التالي، رفضت الذهاب إلى السوق. أخبرت زوجها أنها مريضة، وعليه أن يشتري ما

بريده وهي ستطبخه له. ارتفع صوته منتقداً كسلها. وشكواها الدائمة من مرض غير موجود. كرهت ضجيجه الغاضب كعادتها، إلا أنها لم ترضخ.

قبل الموعد، جلست في الخلاء المجاور لأشجار الكافور منتظرة. حين بدأ الطقس اقتربت، ليس كثيراً جداً، لكنها تقدمت نحوهن ووقفت تراقبهن على مبعدة خطوات قليلة. ازدادت رغبتها في الاندماج بهنّ ومعهنّ. شعرت بنشوة، كأنما تخلصت من هموم كثيرة، لا تعرفها على وجه التحديد، إنما فقط تحس بوجودها. هموم متراكمة منذ الأزل، قبل حتى أن تولد.. قبل كل شيء وأي شيء.

شجعها هذا على الاقتراب أكثر. ما أن أصبحت بين أشجار الكافور، حتى تغير العالم كما تعرفه. شعرت كأن الأرض تميد بها. أحست بإيقاعات الأصوات المنغمة أكثر من أي وقت مضى. تحولت الأشجار المعمرة إلى أثير، تعرق خلاله الأطياف في رقصها وهي تكوّن دائرة تحيط بها هي وتحتضنها برفق. ضاقت الدائرة رويداً رويداً واقتربت الأطياف منها.

جلست على الأرض مبهورة غير قادرة على التقاط أنفاسها. تحولت الأطياف إلى ما يشبه لهباً أرجوانياً يدفئها. لهب أرجواني تنتهي قمته بلون أخضر فاتح يقترب منها أكثر ويلتصق بها. اختفت الأشجار نهائياً، وعاد اللهب إلى حالته كأطياف أنثوية اندمجت معاً في طيف واحد بشعر أسود يكاد

يلامس الأرض، وعينين مشقوقتين طولياً وبشرة حليبية شفافة، وصوت بالغ العذوبة.

تمددت زينات على ظهرها مرتجفة. أغمضت عينيها غير قادرة على تحمل الوهج المنبعث من العينين الطوليتين. ارتعشت كأنما أصابتها الحمى حين شعرت بيد تمتد جسدها على وقع غناء غامض بالصوت العذب نفسه. مغمضة العينين ومرتجفة شعرت بالعالم يهتز من حولها. حاولت الصراخ فانحاش صوتها، جربت البكاء فلم تقدر. استسلمت للاهتزاز والرعشة واليد الممسدة جسدها متناسيةً كل شيء إلاّ اللحظة التي تعيشها الآن.

لم تزرني إنعام منذ شهرين. لا أعرف كيف طاوعها قلبها على التأخر عليّ كل هذه المدة. أفزع من نومي أحياناً حين أتخيل أن أمراً سيئاً قد حدث لها. أثق في أنها ما كانت لتتأخر عليّ ما دامت تستطيع السير. لا تهاجمني الوساوس المزعجة سوى ليلاً. أبسط فكرة تتضخم في رأسي بحيث تمنع عني النوم. أكثر مخاوفي إزعاجاً أن يصيب إنعام مكروه، وهي وحدها، هناك، في بيتها البعيد.

في الماضي اعتادت أن تقول لي:

– هتيجي مرة تلاقيني ميتة لوحدي من غير ما حد يدري بي.

كل زيارة من زياراتها لي بعد أن مرضتُ كانت تردد:

– آخر مرة أزورك فيها.. الروماتيزم هدني!

– وأهون عليك؟

أسألها مستعطفاً، فتجيب بجدية "البركة في مراتك، هتاخد بالها منك".

أكاد أرى بيتها الصغير القابع وحده على الطريق السريع بجوار محطة البنزين، محاطاً بسور من أشجار الليمون والجوافة. كانت تعرف بوصولي من صوت سيارتي العنيف حين أركنها أمام البيت. أدخل صاخباً متجاهلاً نباح الكلب في الخارج. أحدثها بحماسة عن البضائع التي أنقلها، والبلاد التي أتوقف بها. وأصدقائي على الطريق. يملأ دخان سجائري الأزرق هواء البيت، وتتدحرج زجاجات البيرة الفارغة على الأرضية. تجمعها، وتوبخني، فأضحك دون أن أكترث.

أفهم إنعام بمجرد النظر في وجهها. أعرف بسهولة إن كانت غاضبة أم سعيدة، بل وأصل حتى للسبب دون أن تبوح به. على العكس من زوجتي التي لا أفهمها على الإطلاق. عشت معها أكثر من أربعين سنة دون أن أصل لما بداخلها. تقابل صراخي وعصبيتي بالصمت. لا تشكو مطلقاً، ولا تعرف لغة العتاب. سنوات طويلة مرت، ولا تزال على عنادها.

منذ بدأت تكلم إنعام، لم تتحدث معها مرة واحدة عن نفسها، فقط تسألها عن أحوالها، وتنصت باهتمام دون أن تعلق. وتتفادى دائماً الحديث عن ابننا. أخبرتني إنعام أنها حاولت أن تشرح لزوجتي أكثر من مرة أني لم أكن مخموراً يوم الحادث، وبالتالي لست مسؤولاً عن موت الولد، إلا أنها غيرت الموضوع، ومنعت إنعام من فتحه مجدداً.

طلبت منها زوجتي أن تقنعني ببيع السيارة القديمة. قالت لها إنها تحولت لهيكل صدئ ولا تفهم سبب إصراري على الاحتفاظ بها بعد كل ما حدث. أذكر أنها توسلت إليّ بعد الحادث أن أبيع السيارة. كانت لا تطيق رؤيتها. ذكرت شيئاً عن الانتفاع بثمنها، وحين أجبتها بأنها تحولت إلى خردة ولن تعود علينا بأي نقود ذات قيمة. التجأت لصمتها من جديد. بدت كأنما تؤمن أن اختفاء السيارة سيعيد ابننا من العدم. إنعام نفسها، اعترفت لي مؤخراً بأنها كانت تغار من تعلقي بالسيارة، وكانت تضيق بالفوضى التي أخلفها، وزجاجات الخمر الفارغة التي كنت أرميها في أركان بيتها.

الآن تتفادى زوجتي ذكر أي شيء عن ابننا، وتحنو على هيكل السيارة وتهتم به. وتتبادل حوارات ضاحكة مع إنعام، إلا أنها لم تسامحني قط، ولا أزال أراها من وقت لآخر تنظر ساهمة إلى حيث أشجار الكافور المعمرة، حينها تنفصل تماماً عن أي شيء حولها، وتظل على هذا الوضع لبعض الوقت، قبل أن تجر خطواتها بتثاقل نحو الداخل، ووجهها المتغضن يحمل آثار الحسرة وخيبة الأمل.

أنظر إليها أحياناً، وأكون على وشك سؤالها أن تحكي لي كل شيء عمّا رأته بين أشجار الكافور، وعمّا حدث لها في ذلك اليوم البعيد، إلا أني أحجم عن ذلك في آخر لحظة. لا أعرف لماذا لم تتركني؟ ولماذا على الرغم من صمتها وتقدمها في السن تتفانى في خدمتي والاهتمام بي؟ يخطر لي أحياناً أنها فرحة بعجزي. صارت بعده أكثر هدوءاً واسترخاءً. تتحرك

بهدوء وروية، وتمارس تفاصيل يومها غير مكترثة بوجودي. في حين أقضي الوقت في متابعتها، ومراقبة المساحة التي تجود بها عليَّ فتحة النافذة من العالم بالخارج وأنا أنتظر، بلا أمل، مجيء إنعام. كنت لا أبقى في مكان واحد لمدة يوم، حتى عندما يكسد الحال، ولا تكون هناك بضائع لنقلها، كنت أخرج بالسيارة فارغة، وأتجول في البلاد كأنني أهرب من شيء ما. الآن كُتِب عليَّ أن أظل أسيراً لرقدتي هذه إلى ما لا نهاية.

المرأة الساكنة في البيت الحجري في حضن النيل، رفيقة الصمت والجنيّات الراقصات، تلك التي ينادونها زينات، وتعشق الأصوات المنغمة العذبة، وتكره الصراخ والضجيج، تلك المرأة أفاقت من خدرها، وعادت لعالمها وحياتها على وقع صفعة قوية ارتطمت بوجهها. فتحت عينيها لتجد زوجها، سائق عربة نقل البضائع، يغلي من الغضب.

بادرها بصفعات متتالية، وقبل أن تنتبه لعريها التام ورقدتها الغريبة بين أشجار الكافور، كان قد جزها من شعرها خارج خميلة الكافور، وجمع ملابسها المتناثرة هنا وهناك، ورماها فوقها منتظراً أن ترتديها، وما أن لبست جلبابها على عجل حتى عاود من جديد جرها نحو البيت. ظل يصرخ متوعداً ومهدداً دون أن يستمع لتوسلاتها الباكية. لم يصدقها فيما بعد حين حكت له عن جنيّاتها بأطيافهن وأصواتهن المغوية. حبسها في حجرتها لأسابيع، ولاحظت أنه أصبح لا يخرج من البيت كثيراً كما في السابق، بل ويتعمد المكوث في

الخلاء أمامه كل جمعة وقت الصلاة كأنما ينتظر الأطياف التي حدثته عنها.

يضع لها الأكل أمامها وهو متجهم، وحين يسألها عمّا كانت تفعله عارية في الخلاء، تنظر للجهة الأخرى دون أن ترد. لم يكن لديها أي تفسير مفهوم، هي حتى لا تتذكر أنها خلعت ملابسها، فقط تمددت في مركز الدائرة المكونة من الأطياف المقتربة منها، وأغمضت عينيها، منتظرة أن يعود العالم من حولها كما تألفه في بقية الأيام.

عندما انتظمت حياتها كما كانت، وعاود زوجها حياته خارج البيت. اعتادت انتظار جنيّاتها في الموعد نفسه من كل أسبوع، لكن دونما جدوى. لم يظهرن أبداً فيما بعد. صارت حتى تشك في أنهنّ ظهرن لها من قبل. لكنّها بعد سنوات طويلة، حين فقدت ابنها، ثم مرض زوجها ولزم الفراش باستمرار، صارت تشعرت بصمت مشابه، في الوقت نفسه من كل أسبوع. صمت مطبق، لا يعقبه شيء. تحدق أمامها بين أشجار الكافور، محاولةً عبر الذاكرة خلق رفيقات الماضي وإعادتهن للوجود، إلا أنها لا تفلح. تراهنّ فقط بعينيّ خيالها، حينما تغمض عينيها منصتة للصمت المحيط بها.

أغسطس ٢٠١٠

الفهرس


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

"قلت سأحدو حذوه، وبدلاً من رسائلي المفعمة بأسئلة يتجاوزها كأنما لم تكن،
بدأت أكتب له بدوري عن مدينتي. مدينة مخترعة واقعة بين جبال مكسوة
بنباتات وأشجار زاهية الخضرة، وبحر هائج باستمرار يغلّف الجو برائحة اليود،
وتلفظ أمواجه طبقات كثيفة من الملح على الشاطئ كل صباح. بيوت المدينة
مبنية بكاملها على جرف يمتد بين الجبال والبحر الهائج،
كأنها في وضع سقوط أبدي. وسكانها يقاومون الجاذبية طوال الوقت،
يسيرون ببطء صاعدين أو هابطين
محاذرين الوقوع من هذا العلو إلى جوف البحر المتلاطمة
أمواجه بأصوات صاخبة مجلجلة".

الغلاف: صلاح المر



ميريت